خفافيش على هامش النار

قصص

سالم محمود سالم

رقم الإيداع
٢٠٠٤/١٨٩٠٣
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-383-032-2

ايتـــراك للنشـــر والتـــوزيع
طريق غرب مطار الماظة عمارة (١٢) شقة (٢) ص.ب : ٥٦٦٢
هليوبوليس غرب – مصر الجديدة
القاهرة ت : ٤١٧٢٧٤٩ فاكس : ٤١٧٢٧٤٩

إهداء

إلى ... من تحملت معى عبء الحياة الثقيل

وتذوقت معى المر شهداً ، والألم متعة ،

وبثت رطابتها فى حياتى الساخنة .

أم أولادى ..

زوجتى



مقدمة

إن الذين أخذوا على عاتقهم مسئولية تفوق مرحلتهم العمرية ، وبدلاً من أن يعيشوا طفولتهم تحملوا عبئاً كبيراً لا يقـدر عليـه الكثيرون ، لا يعرفون الخوف لأنهم يدركون أنهم أصحاب رسالة وهدف .. تهون الأرواح من أجل تحقيقه .... يواجهون عـدواً لا يحيا إلا إذا اختلق لنفسه عدواً ، ولا يعلم أنه لن يحيـا طـويلاً .. يبنى أحلامه على باطل فتصبح أطماعاً لا نهاية لها (ومـا بنـى على باطل فهو باطل) .

وكما هو معروف إن الباطل مهما ارتفع وعلا فلـن يعـيش طويلاً مهما كانت القوة التى تسانده ، فهؤلاء الأطفال جعلوا العـدو يستنشق الموت .. جعلوا أحلامـه عقيمـة لأن تاريخـه ملـئ بالإخفاقات المتمثلة فى الأسطورة والوهم .

وإذا ما تعرضنا للتحليل النفسى والتـاريخى لـن نجـد إلا إفرازات صهيونية مغرقة فى معاداتهـا للتاريخ ، وعندما يكتبون التاريخ يحولونه إلى أسطورة يبدو عليها أنها بسيطة .. لكنها تخدم صانعيها . وعندما يقرأون تاريخ فلسطين يعتبرونها أرض خاليـة من السكان تنتظر ساكنيها " أرض بلا شعب لشعب بـلا أرض " وهكذا يختفى الشعب الفلسطينى من قراءتهم للتاريخ ، وفى نفـس الوقت يصبح عدواً اختلقوه من الخيال . كل هذا تزوير للتـاريخ..

وتشويه للواقع ، و يتضح هذا جلياً فى مناهضتهم لكل من حاول كشف زيفهم فى أية بقعة من بقاع الأرض .

وأطفال الحجارة نموذج حى .. كشفوا زيفهم وحطموا أسطورتهم ، وقد عرضت فى هذه المجموعة بعض النماذج البطولية التى لم نقم نحن باختراعها بل قاموا بتجسيدها على أرض الواقع إيماناً منهم بهذا الدور البطولى ...

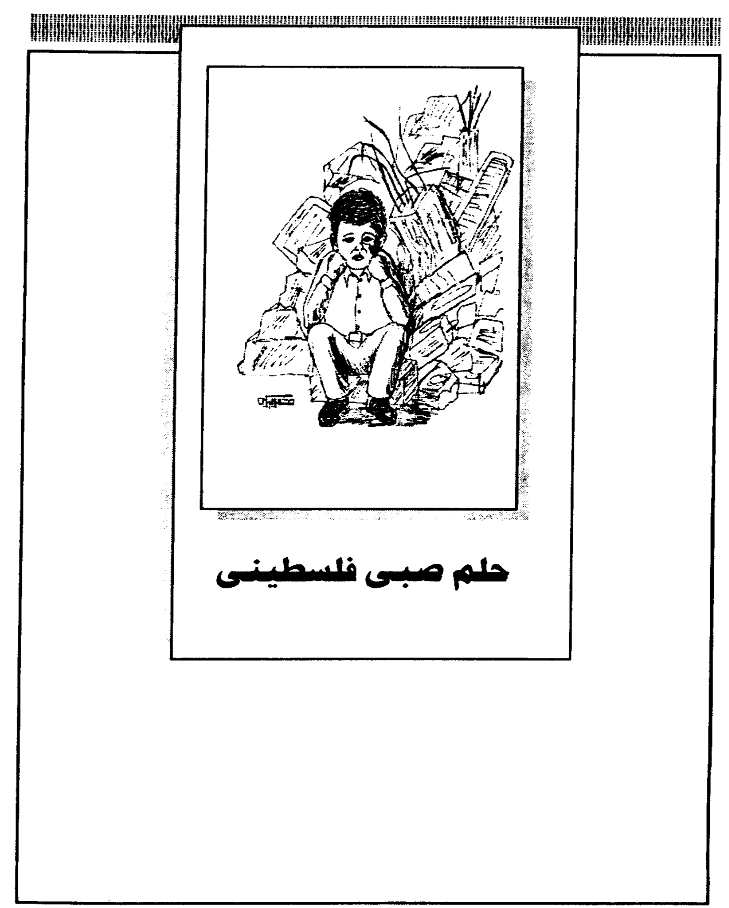
لكى يعود الحق المسلوب لأصحابه وحتى يتمكن هؤلاء الأطفال من ممارسة حقهم الطبيعى فى الحياة الهانئة والأمان الكامل .

هَذِهِ المَجْمُوعَة ....

مَرَتْ أحْدَاثُهَا أمَامَ عَيْنِى ... ثُمَّ اعْتَمَلَتْ فِى صَدْرِى

وتَرَكْتُ قَلمِى يَرْسِمُهَا كَيْفَمَا شَاء

سالم محمود سالم



حلم صبي فلسطيني

خرج من عشه مسرعاً .. صوب رفاقه الواقفين فـــى نهر الشارع الطويل .
كل منهم على يقين تام بدوره .
تجمعوا حول الصبى .. كل منهم أخذ التعليمات .
الأفاعى السامة تملأ الشوارع ، الهدف هو تضليلهم.

انتشروا بخفة العصافير .. ومكر الثعالب .

هاجت أعشاش الدبابير .. واستمرت المطاردة .

أخذ لعبته وانحرف قليلاً خوفاً من كسرها .

أبصرته أفعى واتجهت صوبه .. بخبرة التقط حجراً ورشقه فى رأسها فوقفت لا تحرك ساكنا .

أنتبه الرفقاء ..

وتنبهت الأفاعى لتبث سمها فى كل اتجاه .

توارت العصافير فى حوارى المدينـــة المبللـــة والمظلمـــة .. وأكوام الحجارة هى مطلبهم .

التقط كل منهم قدر استطاعته منها وسكن .

هدأت المدينة لحظات .. وفجأة ... قامت العاصفة .

من الأمام والخلف .. ومن فوق الأرصفة .

ومن أعلى الأسطح الخشبية .. كانت تنطلـــق الحجـــارة فـــوق رؤوسهم تهشمها .

شعر الصبى أن حجره إنما هو قطعة مـن جهـنم .. مفعمـة بالغضب .. خصوصاً بعد ضياع لعبته .

ورشقه كأنما يقذف صاروخاً .

وبعده ..

يتحقق حلمه ويسترد لعبته .

ويلعب مع الدبابير .. امـتلأت الشـوارع بالـدخان الخـانق والقذائف الحية والمطاطية .. للقضاء على حلم الصبى .

تلثم الرفقاء .. انتشروا فى كل صـوب وحـدب .. حتـى لا تلدغهم الثعابين .

ثقته بنفسه كبيرة .. فقد قهر جده قلب الأسد .. وإنه اليوم قادر على قهر أحفاده .

ذهب الصبى يبحث عن لعبته.. فرمقها تحت أرجلهم .. فانتحى جانباً والغيظ يملأ صدره .

أقسم بكل يمين .

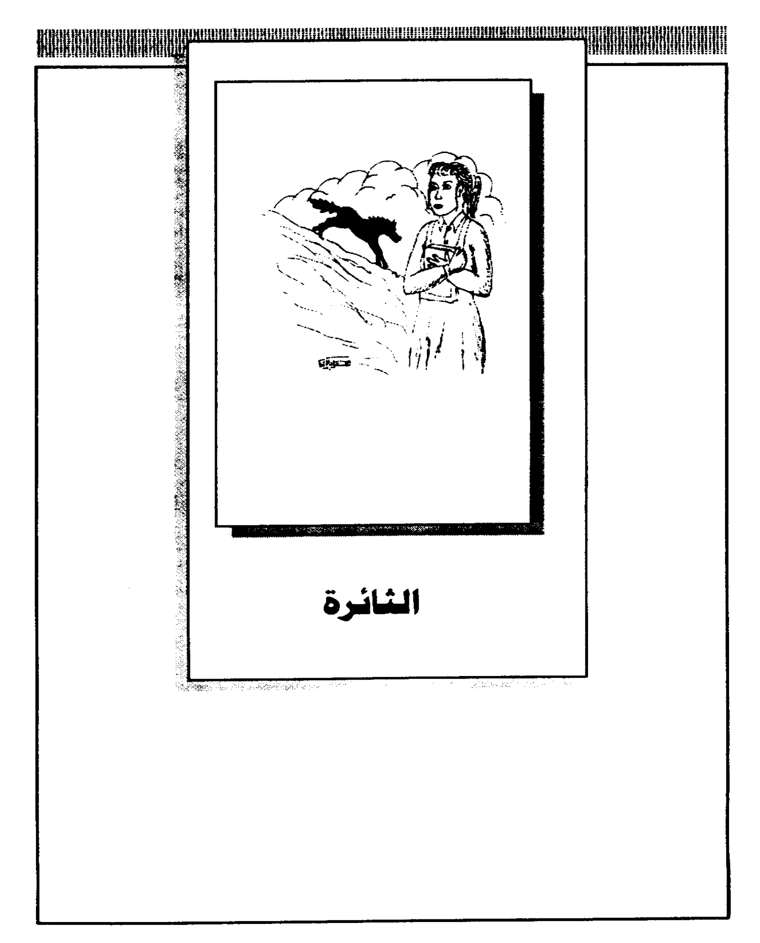
وبشجر الزيتون .

ومجد أجداده فى حطين .

ودم الشهداء الذين قتلوا بسم الثعابين .

لأستردن لعبتى الآن .





الثائرة

(١)

كانت فى أبهى مراحل عمرهـــا .. مرحلـــة الشـــباب الغض .. والحيوية المطلقة .. رغم ذلك لم تشعر بهذه النعمة .

تحتويها أنوثة متفجرة لم تستهوها .

آمالها مفعمة بالغضب الجارف .. الترقب .. الانتظار .. واليأس .

عندما تخرج من بيتها مبكراً متجهة إلى المدرسة .. تحتضـــن حقيبتها المدرسية

تمشى بحذر بجوار الحائط تتخذه ساتراً خوفاً من طلقة طائشـــة أو مقصودة .. تنظر ناحية الصبية اللذين يقذفون الحجـــارة علـــى الدبابات التى تملأ أنهار الشوارع وتسدها .

تراهم وهم يصوبون فوهات المدافع علـــى الأطفـــال .. مـــلأ صدرها الغيظ الثقيل .

(٢)

تحركت أوصالها .. أخذت قراراً بأن تتطوع مع الهلال الأحمر .. ليكون لها دور وإسهام ، وبسرعة فائقة أصبح عنـــدها خبـــرة

كبيرة فى الإسعافات والتمريض .. كل يوم يأتيها المصابون بالعشرات من أعمال الغزاة الغادرين .

تشمر عن ساعديها .. تعاون أقرانها وجيرانها .. كانت يداها الصغيرتان مخضبة بدماء أهلها وذويها.. و قلبها يقطر دماً لما تراه .

يتكرر السؤال ويلح بداخلها :

" ألا من منقذ " .. " ألا من خلاص " ؟

(٣)

وداخل الخيمة الكبيرة الرابضة على الجبل العتيق الذى تفوح منه رائحة أشجار الزيتون المحيطة به ، وعبق الأديان و الرسالات التى هبطت عليه .. الأسرّة متراصة وعليها الجرحى أضعاف عددها .. فرشها يعصر دماً .. وفى ذروة عملها دخل عليها رجال الإسعاف يحملون بين أيديهم طفلة لم تتجاوز الشهور الأربعة الأولى من عمرها ، الدماء تغطى ملامحها التى لم تتضح بعد .. تنزف من شج كبير فى رأسها وأذنيها وفمها بغزارة .

انتصبت منتبهة .. اعتلى الوجوم ملامحها .. تسمرت أجفانها .. سقط من يدها " الجفت " .. راحت فى غيبوبة مع نفسها .. كما لو كان الزمن قد توقف بالنسبة لها عند هذا الحد برغم ما يحيطها من صيحات وآهات وتوجعات .

لم تنبس إلا بكلمتين وهما :

- فاض الكيل .

(٤)

على عجل خلعت من يدها القفازات وما على رأسها من غطاء.

نثرت شعرها الطويل الحالك السواد يمنة ويسرة كأنما غطى الوطن كله .

نظرت نظرة للأفق لم تتحدد ملامحها أو نهايتها .

صرخت ثانية :

- فاض الكيل .

انطلقت كالمهرة الجامحة بالكاد تلمس أطرافها الأرض .

هبطت من أعلى قمة الجبل .. متجهة نحو الشارع الرئيسي للمدينة المظلمة .

أصوات الأعيرة النارية والصواريخ المنهمرة من الطائرات المروحية تدوى ، ألسنة اللهب تخرج من الشبابيك العتيقة .. صراخ الأطفال .. آهات النساء تمزق أحشائها .. وهى تجرى كالمهرة التى جفلت وكسرت الطوق .. تبحث عن منقذ..

وصلت إلى بيتها على الناحية الأخرى من الجبل العتيق المطوق بالدبابات والعسكر المدجج بالسلاح بالقرب من نهاية الشارع المظلم .. كانت آخر لقطة تراها فى هذا الشارع هم الصبية الذين يمسكون بالحجارة يقذفونها على الدبابة .. رأت فوهة الدبابة وهى تصوب تجاه الصبى الذى لم يتخذ ساترا - كأنما ولد دون أن توجد به غريزة الخوف .

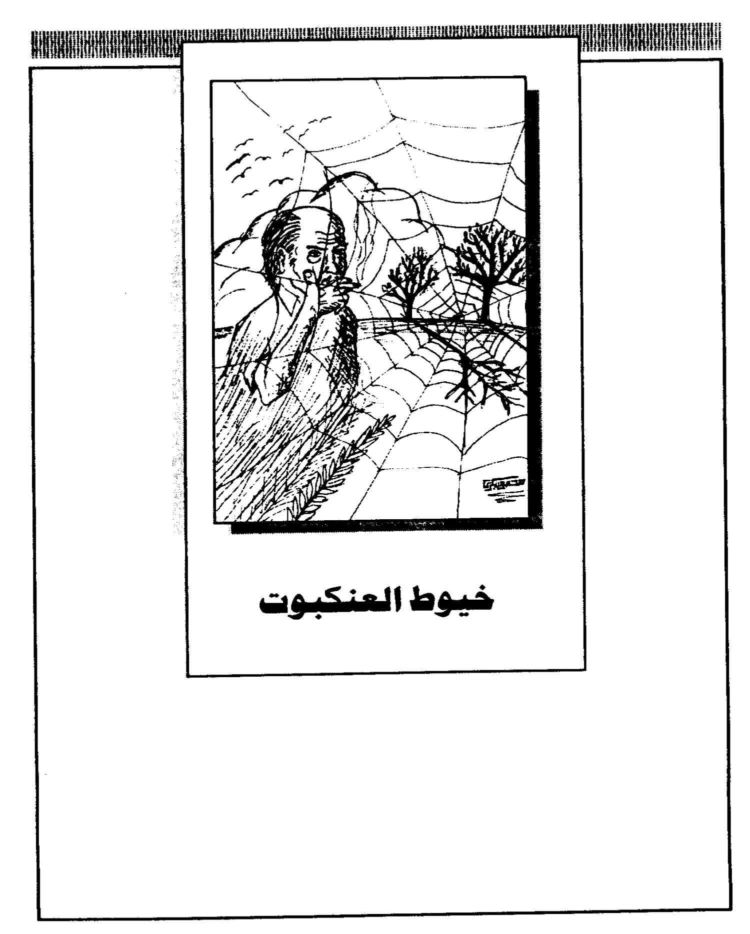
(٦)

صعدت بعض الدرجات المهشمة أمام بيتها .. قابلتها أمها بعد أن دلفت من الباب الرئيسى .. رمقتها بنظرة فاحصة .. اندفعت داخل غرفتها .. ثم قامت بإخراج بعض الملابس من خزانتها .. أخيها الصغير يرمقها بترقب ودهشة .. ثم رآها وهى تخرج من غرفتها متجهة إلى الحمام .. اغتسلت وتوضأت .. ثم دلفت إلى غرفتها باحثة عن المصلاة .. وضعتها ثم أقامت الصلاة .. وبعد أن فرغت من صلاتها طلبت من أخيها أن يغادر الغرفة لحظات حتى تتمكن من ارتداء ملابسها.

(٧)

خرج الصبى منغرسا فى أحضان أمه .. أوصدت الباب بإحكام .. التقطت الملابس التى كانت قد أخرجتها من خزانتها .. أخذت ترتديها .. فى النهاية وقفت أمام المرآة لترى نفسها فى الرداء الأبدى .. ولم يبق إلا بعض الأشياء قامت بغرسها فى أحشائها ثم توشحت بالشال وخرجت من غرفتها .. وجدت أمها وأخاها كأنهما جسد واحد .. قامت باحتوائهما وبكت.. وبكبرياء مسحت دموعها ووقفت شامخة وانطلقت .





خيوط العنكبوت

أثقلت الهموم كاهله .. أعياه الإحباط .. فقد بلغ السن منه مبلغه .. لا يملك الآن إلا مجرد ذكريات أغلبها مؤلمة .. سكن قليلا .. لكن مخه لم يسكن .

دار برأسه سؤال :

هل هذه الذكريات تستحق أن تدون ؟

رد صامتا :

- " ربما " .

اعتدل جالسا ثم سحب أول ورقة .. التقط قلما .. بمجرد أن وضع سن القلم على طرف الورق.

تنفس الصعداء .. تضاربت الأفكار فى رأسه .. تصارعت الذكريات بداخله ثم بدأ يجترها.

ابتداءً من قرار التقسيم فى سبعة وأربعون .. كان وقتئذٍ مجرد شابٍ يافع .. عندما كان يحتضن بندقيته داخل الخندق ورائحة خشبها وحديدها تراود أنفه .. كان يحتضنها كما لو كانت معشوقته .

أغلب الأوقات كان يجمع صبية الحى على التل المجاور لقريته الغارقة فى أشجار الزيتون .. يحكى لهم تلك القصص .

يسألونه ويرد عليهم مجاوبًا .. إلى أن تهجم عليهم سحب الغربان فيلتقطون حجارتهم .. ثم يتوارون وسط أغصان الزيتون

ويراوغونهم وفى اليوم التالى يلتقون .. ويعاودون الكرة .. كـــان هذا الشيخ الذى بلغ من الكبر عتيا .. قسمات الزمن مرسومة على وجهه على شكل تجاعيد وشعر مشيب .

بخبرته وحنكته يرسم لهم خططهـــم .. ويقـــوم بتـــوجيههم .. يفهمون إشاراته بل يفهمون إيماءاته .. يقومون بتنفيذ عملياتهم .. وضع القلم مترنحاعلى الورقة .. أمسك بسيجارته وأشعلها ومـــع أول نفس امتزج الدخان بضوء الصباح .. صنع خيوطاً زرقاء .. ما تلبث أن تتلاشى فى الهواء .

التقط قلمه ثانية وعاود ما بدأه .

عندما كان فى الخندق والشمس تأكل من جسده ومعـــه بضـــع طلقات .. كان حريصاً ألا تضيع إحداها هباءً .

كان يجيد النيشان .. كل طلقة لابد أن يصطاد بها غـــراب .. عندما تدوى المدافع .. كان يجلس القرفصاء فى تلـــك الحفـــرة .. يرتشف بعضاً من قطرات الماء من " قربته " ثم يضعها جانباً بعد أن يضع عليها السدادة خوفاً من تساقط الرمال بداخلها ثم يشـــعل سيجارته .

عندما يحل الظلام كانت تصدع بعض الأصوات منها الزاحفـــة ومنها الجارحة .. وحين يسمع فحيح ثعبان يخـــرج مـــن حفرتـــه يتتبعه ، وعندما يرمقه كان يرشقه بالحجر ثم يمسك بـــه .. يقـــوم بسلخه .. ويصنع منه شواءً يسكت به ثورة بطنه .

ثم يهبط الى حفرته .. يشعل سيجاره بعد هذا الشواء اللذيذ .. دوى المدافع وأزيز الطائرات لا تكف .. وعندما تنتهى سيجارته يغط فى سبات عميق لا توقظه إلا حرارة الشمس تلهب ظهره .

كل هذه الحكايات سمعها الصبية باشتياق .. كانت حافزاً لهم لمواصلة حرب الغربان المتفرقة .. الذين يدججون بالأسلحة والقنابل .. بل يأخذون ساتراً مدرعاً خوفاً من حجر .. لأنهم على يقين بأن هذا الحجر يحمل بداخله ذرات الحق المسلوب .. بل وأكثر من ذلك .. هو أن هذا الحجر سيأتى عليه يوماً وينطق ويقول : " ورائى غراب تعالى فاقتله " .

قام بإطفاء سيجارته .. مع آخر نفس موجه للورقة التى بيده وما بها إلا خطوطاً دائرية .. وطولية وعرضية رفيعة .. تشبه فى شكلها عش العنكبوت كل خط من هذه الخطوط يحمل ذكرى .

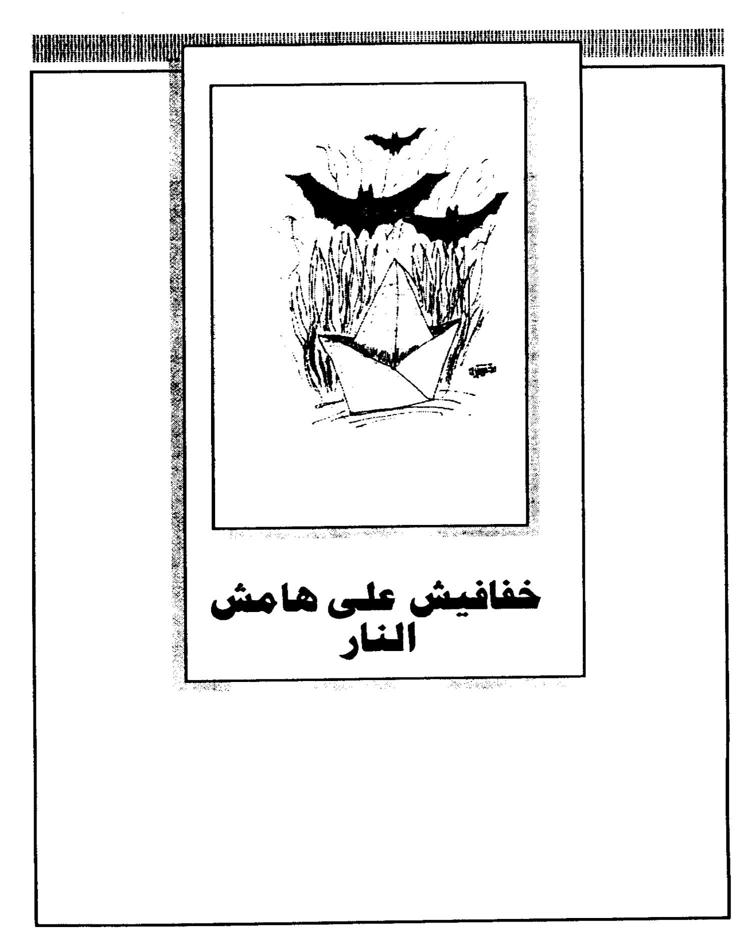
دار السؤال برأسه :

لماذا يقوم بتسجيل ذكرياته على ورق وكل ما عاشه من ذكريات عاشها غيره ؟

بل هذه الذكريات محفورة فى قلوب الجميع وتتناقلها الأجيال .. أمسك الورقة .. وأطبق عليها براحته وبداخلها خيوط العنكبوت .







خفافيش على هامش النار

مئات الأجساد المترنحة.. التى لفظت أنفاسها الأخيرة.
آلاف الخفافيش التى تصنع سحابات سوداء .
وديان الزيتون التى تضمُر من لهفتها للماء .
تعثرت الآمال .. لأن الينابيع تمارى فى الجود .
ذبلت الأزهار وحل الشوك محلها.

عشرات الصرعى تملأ أنهار الشوارع الرطبـة والموحلـة .. بسبب الخفافيش التى تحجب الرؤيا عن سماء الـوادى المبـارك حوله .

نصبت بيوتاً واهية فوق أغصان الزيتون التى يتجمع تحتها كل الصبية .. فتنقض عليهم فى الظلام تمزقهم دون رحمة أو شـفقة على عجل .. يلتقط كل صبى حجرا .. يصوبه نحوهم .

آلاف المراكب الورقية تمخر عباب البحر .. تمتطى أعاليـه .. يتزعمها أكبرهم .. هذا المركب هو المميز فيهم .. يستقله غجرٌ لا تتضح أصولهم لأنهم من كل صوب وحدب قادمون .. قد جعلـوا لهذه الخفافيش الدنسة مكانا ليس لهم .

يشير ربانه بيده المطبقة على منظار يقرب المسافات الوهمية .. يظن به أنها قريبه المنال .. لكن قصر الزمن أم طال لن يحقق هذا المنال .

يهمهم مع من حوله باقتضاب قائلاً :

– هذا هو ما نريده .. ثم يحدق مذهولاً والانفعال يحتبس في حلقه .

ثم ينفجر صائحاً :

لكن كيف نجعله طوع أمرنا ..؟ بعد ما أطبقت الخفافيش على كنوز الوادى الثمينة .

هبطت الغمة على الأعين .. أدرك أهل الوادى والأودية المجاورة مدى الخطورة .. أطبق كل منهم على شهاب سبغته الأنامل بالدم والعَرَق .. كل منهم يريد الزيوع لضوء شهابه لتهج الخفافيش ويعرف الجمع أن هذا النور المنبعث من الشهب يحميهم من الخفافيش والمراكب الورقية الزاحفة.

قائلاً :

من يحمل معى شهاباً .. نريد شهاباً فى كل مكان لكى يجلو الظلام الذى يستر المراكب الورقية الزاحفة .. والخفافيش المتوارية .

آلاف الشهب المتراصة على الشاطئ فـــى انتظـــار المراكـــب الورقية .. الوجوم يعتلى الوجوه الشاحبة .. ثغورهم مفتوحة تريد ابتلاعها عند وصولها .

حضرة " العمدة " فقط هو الذى يعطيهم الآمال .. يشجعهم على الاستمرار فى النضال .

الجمع يتهامس بأصوات مكبوتة :

– " لقد تأخرت المراكب " .

أحدهم يسأل ببرود :

– " أين شيخ الخفراء لكى يدلنا على الحقيقة ؟ "

يرد عليه آخر بحماس :

– مع حضرة " العمدة " يخططون سويا لاســتقبال المراكــب الورقية.

أحد الخفراء يزعق بأعلى صوته قائلا :

– " حضرة " العمدة " وصل .. وسع يا جدع انت وهو وهو .

بجانبه شيخ الخفراء والحاشية .. الجمع حولهم يريدون معرفــة الحقيقة بتصريح من حضرة " العمدة " .. اشتد الموقف صـــعوبة وتوتر ، ولا أحد يعرف الحقيقة .

يتهامسون فى صمت :

– من إذن يعلم ؟

الجمع يلوح .. يهتف بحماس ونفاق لحضرة " العمدة " .. هـو بدوره يرمقهم بنظرات حادة محذرة ... يرد عليهم التحيـة .. لا يستطيع أحدهم الوصول إليه ليستفسر عن شيء .. وبجواره شيخ الخفراء ذو الشارب المدلى .

عمت الفوضى الوادى .. اختلط الحابل بالنابل .. لكن لا جدوى ، فلا أحد يعرف الحقيقة .. من الأفق يأتى صوت بوق من أعلـى الأمواج يكسر حدة الفوضى .

الجمع ينتبه .. يلتفتون صوب الصـوت المـدوى .. يفتحـون ثغورهم ببلاهة .. إنها المراكب الورقية قد وصـلت .. انطفـأت الشهب .. أطبق الصمت .. ولاحت الخفافيش .





الحكيم واللئيم



أدرك أنه لا مناص من التسليم .. ورجوع الحق إلـــى أصحابه .. ذهب تجاه الشرق والغرب لا يعبأ بأحد.
" ويثرثر " :
هذه الدار هى ملك لنا .. وأنا أحد الورثة رضيتم أم أبيتم.
باستعلاء قال : هذا الكلام للجميع .

سأستعمرها كيفما أشاء .. لن أعبأ بأحـــد لأن الغلبـــة لـــى .. سأردى كل من يقف فى طريقى دونما إحراج من أحد .

قال هذا كما لو كان تتريا همجياً .. حاول الزحف تجاه الشاطئ ليقيم منتجعاً عفوياً .. بالخديعة فرض على جيرانه .. كان هذا هو جار السوء .. فى قرارة نفسه أنه لن يرحل مـــن أرض أحلامـــه الواهية المصطنعة .

استغل عصابته الضالة لإرهاب أهل القرية المساكين .. كـــان الصبية يتحرشون بهم .. عندما لا يقدرون عليه يقذفونهم بالحجارة ويختفون .. أو يحرقون رمزهم .. فى ضمائرهم أن يبددوا شملهم الذى تجمع من الشتات بوعد من حاقد .

اجتمع أهل القرية فى محاولة منهم لوضع حد لهذه المهزلة .
قرروا :

مقاطعة اللئيم وأعوانه .. النضال من أجل البقاء .

قاطعهم رجل مسن .. قسمات الزمن مرسومة بشفافية على جبينه .. لحيته البيضاء تزيده وقاراً .. كما لو كان حكيماً من حكماء الزمن المنصرم .

قال لهم :

– يا قوم هذا هو قدرنا نحن آل البيت المبارك حوله .. تعودنا على مكرهم ونقضهم للعهود من أزمان أجدادهم السابقين .. الحل موجود .. لا يخفى على أحد .. لكن لا أحد يستطيع أن ينطق به لأن الجميع يعرف أن هذا اللئيم هو الابن غير الشرعى للغجرية ذات الأصول المتعددة التى تأخذ بتاً فى كل قرية .

و برغم ضآلتها فى صفحات التاريخ إلا أنها تتحكم فى الجميع لجعلهم جميعا غجراً .

بعد أن وصل خبر الاجتماع إلى اللئيم من خلال العملاء الفاشلين المنتشرين فى الشوارع المضيئة والمظلمة معاً .. فى الأروقة والأزقة .. على كل شبر من الأرض المباركة .

على الفور .. استدعى الحاشية الضالة .. عقدوا اجتماعاً تفوح منه رائحة كل ما حرم الله... التفوا حول مائدة عليها كل متع الدنيا الملموسة والمادية .. فتيات .. فتيان .. لابد أولاً من إشباع غرائزهم المادية قبل اتخاذ أى قرار .. كى يكون صائباً لهم

وصاعقة على الحكيم .. لكن فى وجود ذوى الرأى الصـــائب .. وتمت الموافقة على عقده .

حضر الطرفان الاجتماع .. الذى أسفر عن عدة بنـــود منهـــا .. أن يأخذ الحكيم وأهله بيتهم كاملاً مقابل أن يعيش اللئيم فى أمان .

رد اللئيم مستنكراً :

– لن يأخذ حقه إلا لو أعطانى الأمان .

قال الحكيم :

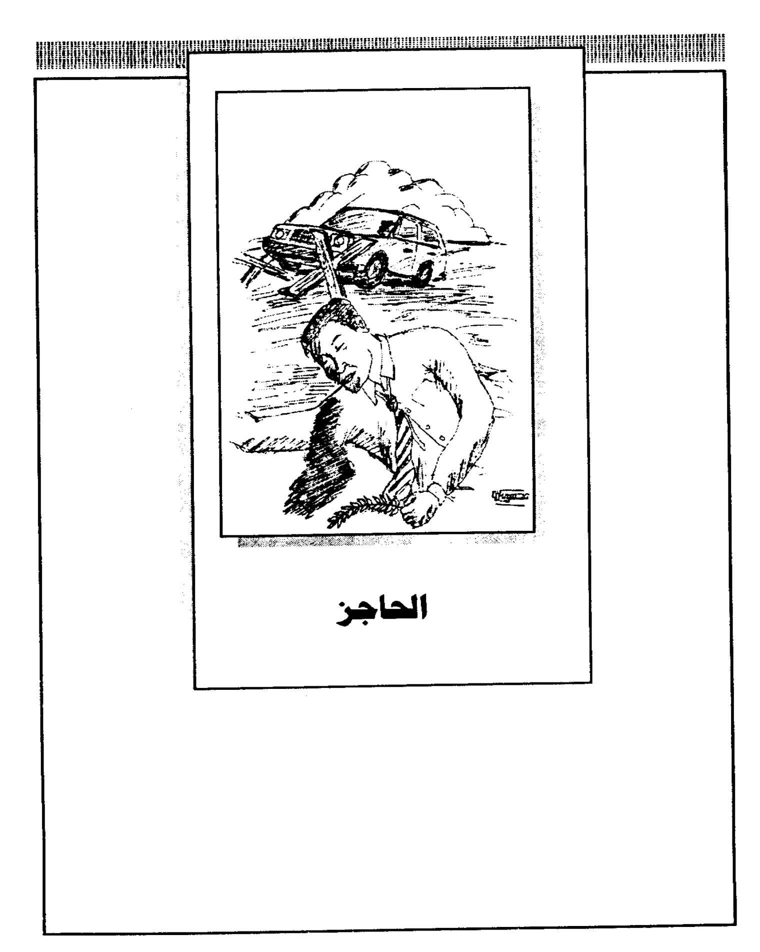
– عليك الأمان .. أين حقى إذن ؟

رد عليه اللئيم باستعلاء وقال :

– ابحث عنه بنفسك فإن استطعت .. خذه .







الحاجز



(١)

توجعت الأم إيذاناً بالمولود الجديد .. على عجل طلب الزوج سيارة الإسعاف التى تخطت عشرات الحواجز قبل أن تصل إلى المنزل .. لتأخذ الأم إلى المستشـــفى كى تضع حملها .. ولولا أنها سيارة إسعاف ما كانـــت قد وصلت .

نزل منها المسعفون مسرعين ومعهم حمالة الإسعاف .. صعدوا السلالم الأمامية للمنزل المحاط بأشجار الزيتون وســط صــيحات الأب بإفساح الطريق للسيارة التى تزعق وتزمجر باســتعجال .. لكن حراس الحواجز يقفون وسط الطريق وعلى جانبيه لتفتيش كل آت ولائح .. ونظراً لصيحات الأب الملهــوف أوقفــوا الســيارة معاندين بحجة الحماية .. أو أن تكون خدعة .

(٢)

طال الانتظار .. الأم داخل السيارة تصارع سكرات الموت .. حتى أذِن للمولود الجديد أن يولد أمام هذا الحاجز .

سمع الأب بكاء طفله لحظة ميلاده .

تبسم وانفرجت أساريره

طلب من السائق أن يعود أدراجه .

(٣)

مرت السنون ثقيلة وأصبح صبياً ودخل مدرسة الحـــي ، كـــان يستشيط غيظاً من هذه الحواجز التي توقفه في الذهاب والعودة .

قال لنفسه :

– كيف يملأون شوارعنا بكل هذه الحواجز ؟

يذهب مع رفاقه في موجات .. يعترضون طريق الــدبابات .. المدرعات وفي أيديهم الحجارة يقذفونها عليهم وهم يرون الجنـــود المدججين بالسلاح يأخذون ساتراً خوفاً من حجارتهم ثم يصوبون تجاههم البنادق ، شب الصبي وسط هذه الحجارة .. صـــار شـــاباً يافعاً يملأ صدره الغيظ الثقيل من تلك الحواجز التي لا تنتهي .

بدأ الظلام يغطي المدينة كالكفن وأغلقت نوافذها وأبوابها .. لم يسمع سوى دوي أعيره نارية هنا وهناك وبعض صيحات الصبية والشباب التي تختفي ارتطامات حجارتهم أمام هدير البنادق .

حينما كان عائداً من عمله قاصداً منزله بسيارته التي يعبر بهـــا عشرات الحواجز يومياً بعد تفتيشه ذاتيا وتفتيش السيارة .

استشاط غضباً .. وعلى مرمى بصره .. رمق أول حـــاجز .. الذي تعود أن يوقفه للتفتيش .. دار في خلده فوراً كســـره انتقامـــاً لهذا التحكم الذي فاق الحد .

أعطى قدمه الإشارة بحرية الحركة لزيادة ســـرعة الســـيارة .. ببراعة وسرعة فائقة اقتحم الحاجز إلى الجانب الآخر منه .

وقف حراس الحاجز منبهرين من جرأة هذا الشاب .. بسـرعة أشهروا أسلحتهم .. اتجهت نحوه بوابل من النيران .. لم تصبه .. لكنها أصابت جسم سيارته .. قام باقتحام الحاجز الثانى والثالـث وما تلاهم .

ظن أن الذى أمامه هو آخر حاجز .. نظر فـى المـرآة التـى أمامه فوجد طابوراً طويلاً من السيارات المطاردة له .. خيل إليه أن كل حراس الحواجز فى أثره .. وابل من النيران قد فتح عليـه .. أثناء ذلك فوجئ بأن أمامه حراسـاً آخـرين اكتشـف بـأنهم يحرسون حاجزاً آخر .. قام باقتحامه أيضاً وبالتالى انضم حراسه إلى فريق حراس الحواجز الذين فى أثره .. حتـى امـتلأ نهـر الطريق بهم وكلهم فى أثره .

(٥)

أصاب أحد الأعيرة إطار سيارته فانخرط جانباً .. ترك السيارة مسرعاً .. قام بعبور الطريق الذى يمر من أمام أحد المحلات.

وجد أمامه سيارة .. بها سيدة أدرك أنها تنتظر أحداً ما داخـل المحل .. لم يجد أمامه مفراً من ركوب هذه السيارة وبها السيدة .

صرخت خائفة منه وبخبرته أيقن أنها تتبع حراس الحواجز .. طمأنها على حياتها لكن لم يهدأ روعها.. استمرت المطاردة فـى معظم شوارع المدينة المظلمة الرطبة .. أشجار الزيتون تنصـرم من جانبه كالبرق .. السيدة تصرخ خائفة من الموت .

رق قلبه لها .. انتحى جانباً .. أنزلها من السيارة برفق .. عاد أدراجه مسرعاً .

(٦)

لمح حراس الحواجز المرأة فتوقفوا عندها ثم اكتشفوا أنها منهم.

كان أول سؤال لها :

– في أي اتجاه هرب ؟

فأشارت بأصبعها على الاتجاه الذي فر منه دون تردد .

أخذها أحدهم ليهدأ من روعها داخل إحدى المحلات .. انطلق الباقون في الاتجاه الذي دلتهم عليه المرأة .

مر وقت ليس طويل من المطاردة .. ثم رمقوه وهو يعبر أحد التقاطعات .. انقسموا إلى فريقين لكي يتمكنوا منه .. دخل أحد الشوارع الجانبية ووراءه فريق .. الآخر قابله .. وجد نفسه محصوراً في وسطهم .

أطلقوا عليه النيران ليقتلوه لأن هدفهم هو قتله وليس القبض عليه .

وجهة نظرهم : ما استحق أن يعيش إلا هم .

ولحظة انفجار سيارته .. فتح بابها وألقى بجسمه خارجها .. لم يرمقوه لأن الشارع كان يلتف في ظلام دامس .. ما عدا بعض الأماكن التي ينفذ منها بعض من أشعة الضوء خلال النوافذ العتيقة المثقوبة من آثار الطلقات العشوائية على أطفال الحجارة .

(٧)

لملم نفسه من أثر ارتطامه بحافة الطريق .. تلفت حوله على عجل .. فوجد زقاقاً معتماً كالشق .. على أوله توجد آثار لسلالم متهدمة .. دخله لاهثاً .. توارى فى جنح الظلام .

وقف حراس الحواجز أمام هذا الزقاق مبهوتين .. مسلطين الكشافات المضيئة داخله .

تهامسوا بحذر وكلمات مكتومة :

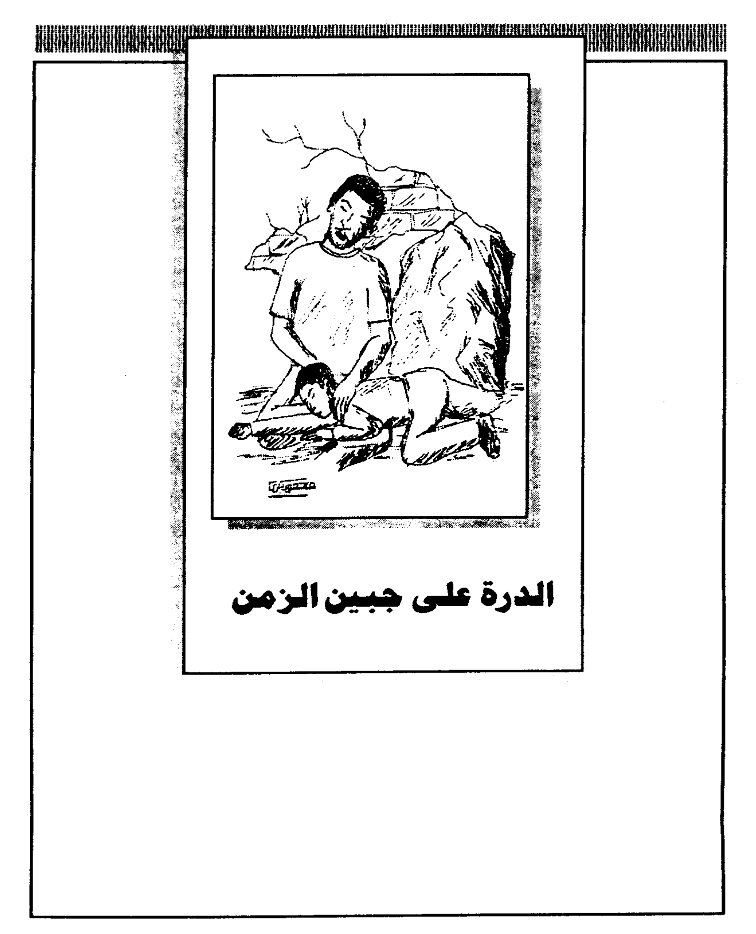
– لابد وأن يكون قد فر من هذا الزقاق .

على عجل انحشروا جميعاً فى هذا الزقاق ومعهم كشافات الإنارة .. لمحوه على الطرف الآخر للزقاق ممسكاً بكتفه اليمين الذى ينزف بغزارة إثر إحدى الطلقات التى أصابته ، يلهث والدم يسيل منه على الأرض .. نجح فى الخروج من الزقاق إلى الشارع الرئيسى .. بعد أن عبره على الجانب الآخر منهكاً ، وتوارى داخل أشجار الزيتون .

(٨)

ركن بظهره على إحداها ممسكاً بيده أحد أغصانها الذى قطع عنوة .. وفجأة سمع انفجاراً مدوياً.. نظر خلفه وجده قد أكلهم جميعاً .

تنفس الصعداء .. قرر العودة لمنزله .. أثناء ذلك .. رمقه الفريق الآخر .. هم بالفرار ثانية .. لكنهم عاجلوه بوابل من النيران .. خر شهيداً وبيده غصن الزيتون المقطوع .



الدرة على جبين الزمن



(١)

استمر الغضب الجارف والثورة العارمـــة .. الحــذر والترقب يحتضنان جدران المدينة .. ويملآن الشوارع والأزقة والميادين الملتحفة بالظلام .. بـــرغم عشـــق الجموع لجميع معتقداتهم .. لهذه المدينة .

لم تتوان الأفاعى عن نفث سمها في كل من أحبوها .. كالعـــادة خرج الأب يكافح من أجل قوت أسرته الصغيرة مثل كل يـــوم .. عندما عاد إلى داره كان منهك القوى خائراً .. لكنه لم يـــر ابنـــه الذى كان يستقبله كل يوم فرحاً مهللاً ومعانقاً .

تلفت يبحث عنه في أرجاء الدار فلم يجده .

سأل زوجته التي كانت بدورها مشغولة في تجهيز طعام الغذاء.

ردت عليه غير مكترثة :

– ربما خرج إلى الشارع يلهو مع أقرانه من الصبية .

(٢)

هدأ روعه .. جلس مستعداً لوجبة الغذاء .

أثناء ذلك جال بخاطره :

من يقطنون القصور .. يلتحفون بالحرير ... يملأون بطـــونهم ... ينامون ملىء جفونهم دونما اكتراث بما يحـــدث لغيـــرهم .. يشغلون الإيوانات .. يعقدون اجتماعات .. يعدون لقاءات .. ولكن هيهات .. هيهات .. ومع أول كِسْرة خبز في يده وشـــفتاه تكـــاد

تنبس " بسم الله " سمع صراخ ودوى مدافع .. مع أنهـم تعـودوا على هذا .. إلا أنه انتصب واقفاً .. هرول تجاه شـرفة الـدار .. أبصر الدبابات تقذف نيرانها صوب الأطفال .. على عجل كـان وسط الشارع الطويل المزدحم يبحث عن ابنه .

(٣)

رمقه عن بعد يلتقط حجراً في حجم يـده الصـغيرة .. يتجـه صوب الدبابة .. يدنوا منها أكثر فأكثر حتى أضحى في مواجهتها ولا يزال مطبقاً على الحجر الصغير .

يعتقد الصغير أن ما بيده سيحطم هذه الدبابـة ويتحقـق حلمـه وحلم أقرانه من الذين يحملون الحجارة يظنون أنها درعهم الواقي.

انطلق الأب يعدو .. التقط ابنه مسرعاً نحو أقـرب سـاتر .. ظن انه سيحميه وولده من الأفاعي .

(٤)

رمقته أفعى من الأفاعي الكثيرة المنتشرة وتملأ أنهار الشوارع المكتظة بهم .. مدججون بالسلاح وصوَّبت نحو الصبي دون الأب .. كأنما تريد أن يموت الأب بحسرته على وليـده .. درة قلبـه دونما فعل شيء لإنقاذه .. ولا تدرى هذه الأفعى أنهـا أشـعلت حماساً منقطع النظير وحمية للأطفال والشباب .. فتسابقت الأيادى لالتقاط الحجارة التى تهوى فوق رؤوس الأفاعى كأنها من سجيل.

(٤)

وبعد أن دخلت جحورها .. اتجه الحشد إلــى الأب ودرتــه .. ووقفوا على مقربة منهما .. يحتضنه وهو ينزف ثم انخــرط بــه بجوار السور.

جلس معتدلاً ودموعه تنهمر بغزارة على وجه الشهيد الصغير.

وقال له :

تماسك يا بنى .. إن الأفاعي تود القضاء على الصبية حتــى لا يصيروا شباباً يعترضوا أحلامهم الرخيصة التي حققها لهم وعــد الحاقد .

رد الصغير وهو يترنح :

– لا تبتأس يا أبت إنى الآن مسرور لأنى أرى الآن ما وعــدنا ربنا .. عالم آخر جميل جنة عرضها كعرض السماوات والأرض ليس فيها سلاح ولا ظلم .

قال الأب :

– لن يهدأ لنا بال حتى نجعل دمــاءهم تمــلأ المســتنقعات والخرابات كما فعل جدك صلاح الدين من قبل .

صمت لحظات وهو يرقب جسد ابنه الساكن ثم أردف :

لن تذهب دماؤك الذكية سدى بل سيأتى اليــوم الــذى نســحق رؤوسهم بأرجلنا .. بل سل الحجر المخضب بالدم .. يكرههم .

(٥)

على الجانب الأخر أبصر الطائرات وهى تقذف المدينة المظلمة .. المدافع والدبابات تلقى بكتل من النيران علـــى الأطفـــال .. على كل من فى الشارع من صبيه .. شباب .. نسوة وكهـــول أيضا لم تفرق بل تحصدهم حصداً .

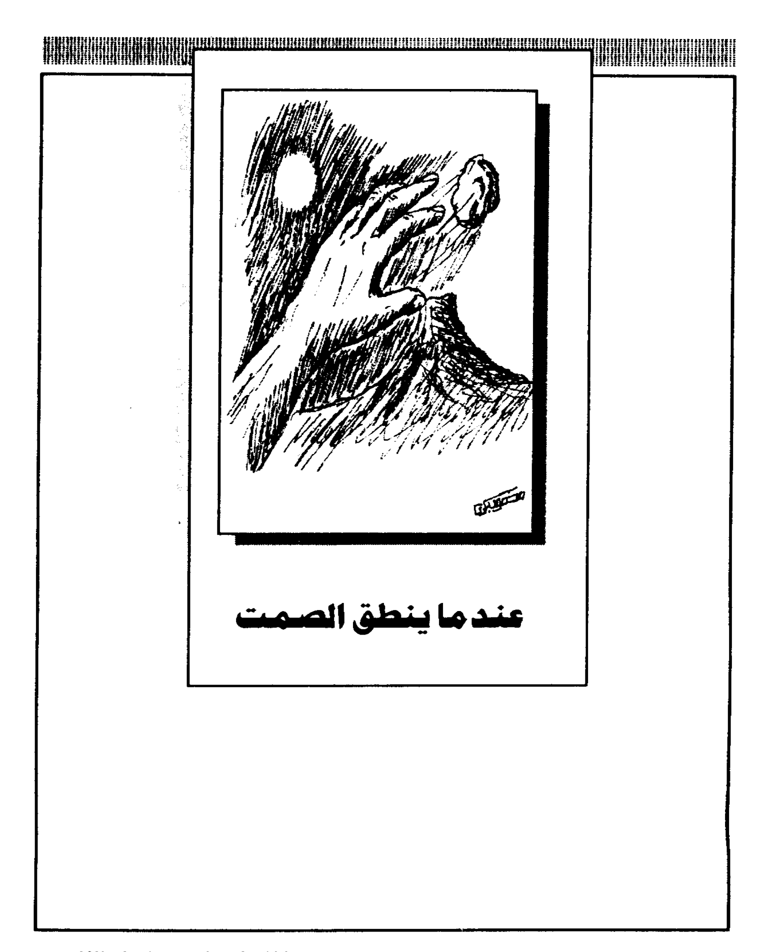
(٦)

فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها ، ومن فوق الأسطح .. فـــى نهر الشارع تحرك الحشد الكبير صـــوب الأب ووليـــده أمـــام المدرعات التى تسد الشوارع .. التقطوا الصبي الشـــهيد مـــن حجر أبيه ومد أحدهم يده بالعلم وكفنوه به ورفعوه على نعشه ، وحملوه على الأعناق وسط طوفان من البشر موجهين رســـالة لمن يدفنون رؤوسهم فى الرمل .



قصص قصيرة جداً





عند ما ينطق الصمت



بالقرب من كينونة الأشياء .
يرقب جثث الصرعى المتناثرة وسط الأشلاء .
فى الأفق تحوم الجوارح .
فى ضوء القمر الخافت .. مع صدى الأنين الساكت ..
الملامس للزمن المسحور.

يخرج صبياً من وسط البركان ممسكاً بيده حجراً من سـجيل ، والدماء تغطى ملامحه البريئة .

يثقب بنظرات حادة كل الحطام .

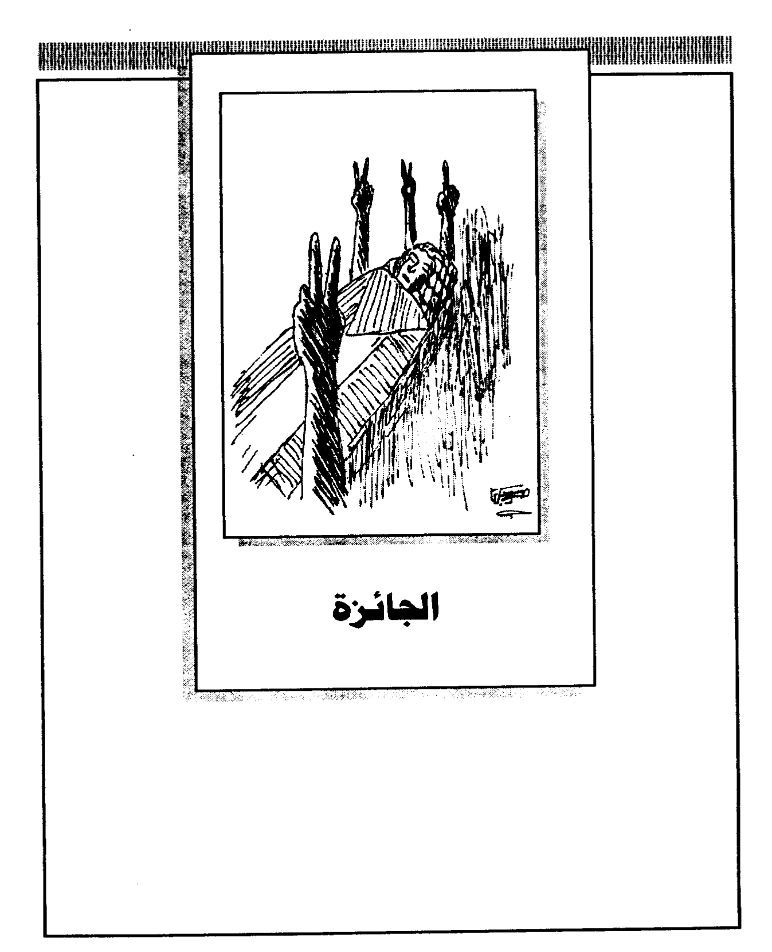
تجوب نظراته كل الاتجاهات .

يرقب بجوار الحطام دبابة مفوهة ودخان القذائف مازال عالقـاً بها .

يرتسم الغضب الثقيل على وجهه البرئ .

يتجه صوبها بدون تردد أو خوف وهو مطبق بيـده الصـغيرة على الحجر ويقذفها به فتنفجر أشلاءً .





الجائزة



فى سقطة من الزمن .. وسط الرمال الممزوجة بالـــدم المنهمر بغزارة .. من أجســـاد الشـــهداء والأمهـــات الثكالى اللائى يلوحن بأوشحتهن .. فى قلب الأجســـاد الملتصقة .. التى تشكل كتلاً بشرية .. تنفجر بالغضب الجارف الرافض للهوان .

وعلى رؤوسهم الأعلام .. الصور واللافتات التـــى تشـــجب .. تستنكر القهر .. والأيادى المرفوعة لأعلى يشير منهـــا أصـــبعان النصر أو الشهادة .

يتقدمهم الصبى الملفوف بـــالعَلم محمـــولا علـــى الأعنـــاق .. والأيادى تتزاحم على حملة .

ترفرف على الموكب المهيب روحه فرحة بما رأته من حفـــاوة وترحيب .

ينتظرها طيرٌ أخضرُ يصاحبها فى سلام لاستلام الجائزة .





ثورة الغربان

استظلت الصبية تحت شجرة زيتونــه كرمــوا بهــا ، تأويهم وتحميهم ، منهم من يمسك بيده كسرة ومــنهم من يطبق على حجر كطائر برجليه حجارة من سجيل ، وفى أسفل الوادى الجيوش مجيشه .. فــى وســطهم الدب العجوز الأحمق يتبختر باستعلاء وغطرسة على جثث ضحاياه .

يرمق العجائز والأطفال وهم يَنتشلون ما خلفــه الــدمار مــن أجهزة وأغطيه وسائر فحوى الديار المهدمة ، وفى الأفق رمــق الصبية سحابة سوداء من الغربان قادمة بقوة تشــق الفضــاء .. قاصده شجرة الزيتون التى يحتمون بها .

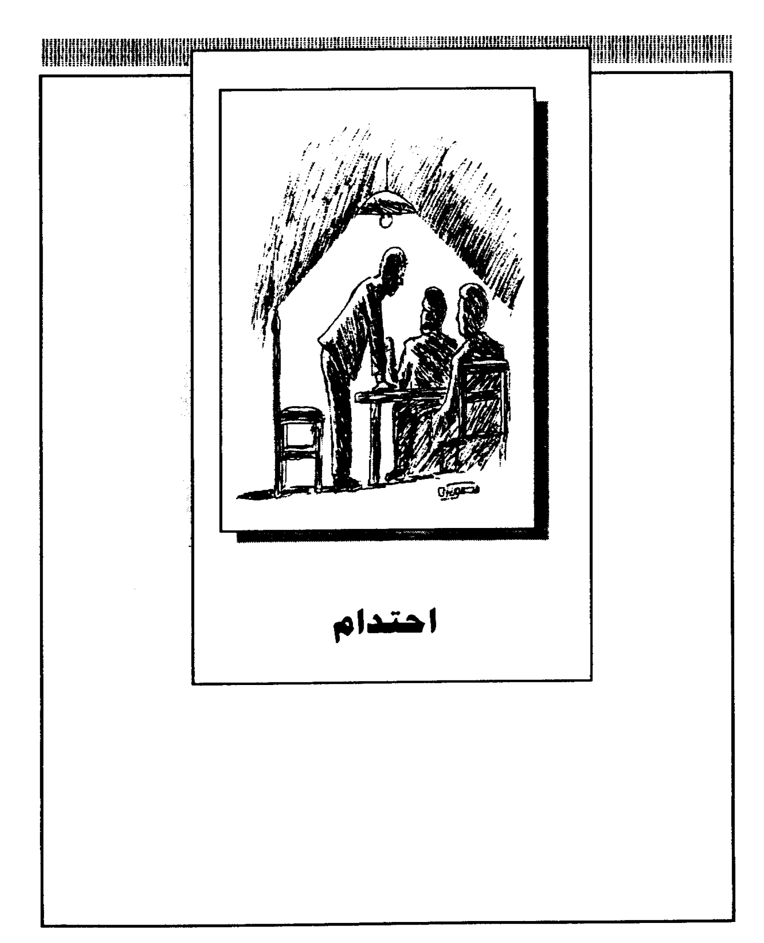
جفلت الصبية خوفاً من لهيب أجنحتها .

تقرفصوا .

استقرت الغربان على أغصانها .. وبدأت فى بنــاء أعشاشــها الاستيطانية الواهية .. ولا يدرون أنه مجرد حجــر بيــد طفــل صغير سيؤرق حياتهم .







احتدام



وقف منتصبا وعلامات الغضب الثقيل مرسومة على وجهه النحيل المعروق مثل خريطة مطموسة المعالم .
قال بصوت جهور :
- " لا يوجد مستحيل " ، ما داموا يغضبون فأنا لهم بالمرصاد .

رد عليه أحد الجالسين متجهما :

- هى أرض واحدة تشملنا ، وسماء واحدة تحتوينا ، وطريقان أحدهما إلى جنة والآخر إلى نار .

بدأت المناقشة تحتدم بين الطرفين .. اختلط الكلام ببعضه وأضحى غوغاء .

تشابهت الملامح .. خرجوا من وقارهم المصطنع الذى هل علينا فى البداية .

حاول الطرف الثالث التدخل لإيجاد مساحة من الاتفاق .. لكنه لم يجد أية مساحات .. فكل المساحات قد تم اغتصابها بالقوة .

استعمرت وباتت بوضع اليد .. لكن الغير مكسب للملكية .

إلا أنه قد همس فى آذاننا :

- بأن هذا الوضع قد خلق فرصة للمتحذلقين ومريدى الشـــهرة فى الانطلاق نحو بغيتهم .

لحظات .

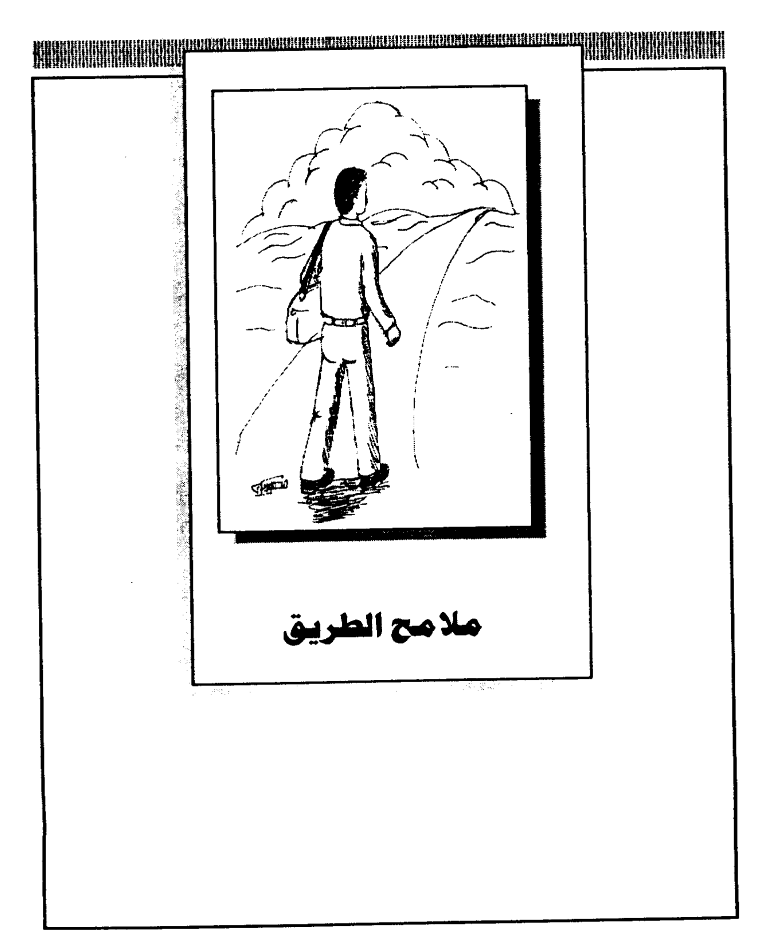
عاد أحدهما مستدركا :

- لقد حققنا المعجزات فى زمن قياسى .

رد عليه الأخر بهدوء :

- يا سيدى " قد انتهى زمن المعجزات " .





ملامح الطريق



خلف وراء ظهره الغالى والرخيص .. حـــاول رســم هدف لنفسه.. لكنه وجد نفسه يختنق بالدخان الأسود .
تغوص قدماه فى المقابر الجماعية .
حاول أن يهتدى إلى طريق أو سبيل .. طالمـــا ســـأل نفسه :
أى طريق وأى سبيل سيسلك ؟

هل هناك سبل أخرى لا نعرفها ..؟

إن وجدت :

– إلى أين.. ؟

ظن أن هناك طريق هو أقصر طريق إلى الهدف .

أى هدف ؟

تشابكت السبل .. تفرعت وانتشرت داخل خريطـــة مطموســـة المعالم.. وبما أنها جديدة فكل طرقها جديدة وحدودها أيضاً جديدة.

تركها جانباً .

تسللت يده إلى تابلوه سيارته .. أخرج بوصلة ليحدد بها طريقه .. بعد أن ضللته الخريطة .

وبعد أن تبعها مئات الأميال .. وجد نفسه فى أرض مجهولة .. لكن لغة أصحابها مشابهة للغته .. على البعد لمح كميناً أو حاجزاً ظن أن الموجودين به سيدلونه عندما دنا منهم .

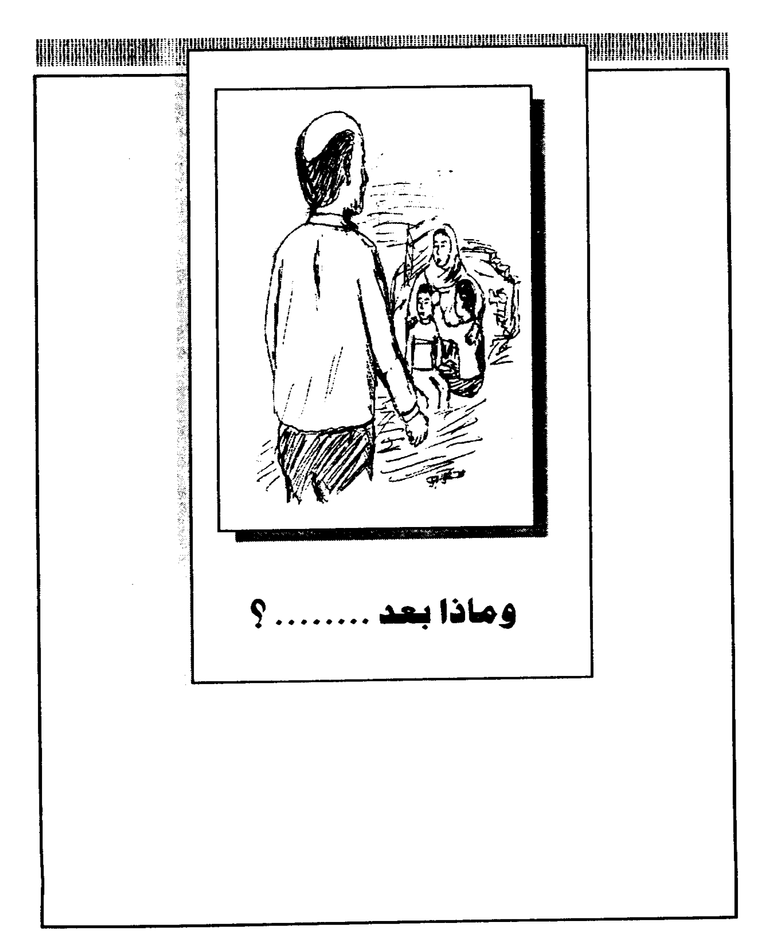
أوقفوه ثم سألوه :

من أنت ؟ .. وإلى أين ؟

رد عليهم وهو مبهوت :

– أبحث عن الطريق المؤدى إلى بلدى .




وماذا بعد ....؟



.. يشـــعر بـــأن العـــالم نقطـــة تتوســـط راحتـــه .
يجوب بفكره العتيق حنايا الأشـــياء الباليـــة .. يحنـــوا على صغاره ويلملم أحزانهم ... يشقى ليسعدهم .
هذا الأب البائس الذى لو رأيته مرة ســـوف تلتصـــق ملامحه فى ذهنك وترسخ ولا تخرج منه أبداً .

فهو أبيض الوجه .. مشرب بالحمرة .. تكاد رأســـه تشـــتعل بالشيب .. ترتسم على وجهه المبهوت تجاعيد غليظـــة .. زائـــغ العينين .. حيران .. قلق .. متوتر .. يشعر دائماً بالخوف .

لا يستبعد أن يداهمه شئ ما يهدم منزله على رأس صغاره كما حدث للمنازل المجاورة له .

يخرج صباح كل يوم ينقب عن رزقه .. وهو لا يدرى إن كان سيعود حياً أم لا .

وإذا عاد حياً سيجد صغاره فى أمان أم لا .. ؟

كالعادة خرج لعمله لكى يعود بشى من الزاد لصغاره .

يتعثر فى مركبات الدمار التى تملأ أنهار الشوارع لتفســـد مـــا فيها .. يترك قلبه دائماً فى منزله مع أسرته حارسا لهم .

يتفطر عليهم .. يحتويهم .. حتى أثناء خروجه للصلاة .

دائما يتوقع أن الدور سيأتى يوما ما عليهم .

وأخوه فى الجانب الآخر من الأرض يتابع الأخبـــار المؤلمـــة بشغف .. بعد أن يأس العدادون من الحصر .. فلت الزمـــام مـــن أيديهم .. أصبحت الأخبار متشابهة .

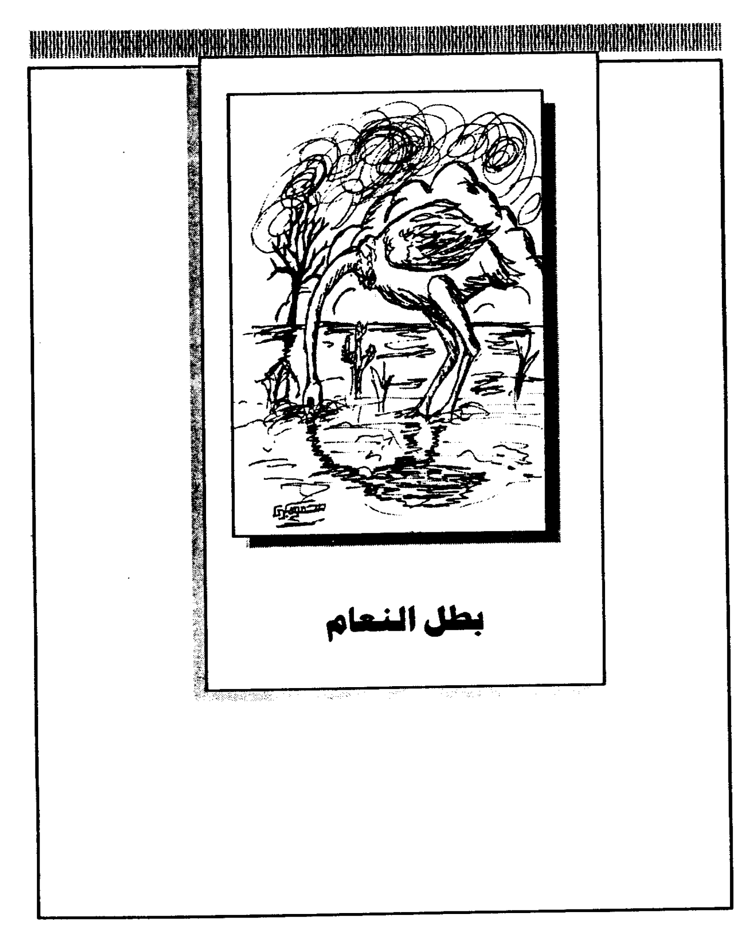
بعد انتهاء عمله .. عاد أدراجه .. كان قلبه مقبوضا .. علـــى مرمى بصره رمق سيارات كثيرة تزعـــق وتزمجـــر .. الهـــرج والمرج يملأن الشارع .

ظن أن هذا من أجل أحد المنازل المجاورة له كالعادة ، وعندما دنا من منزله تأكد أن الدور قد أتى عليه .

وقف على أنقاضه مبهوتا .. لا يشعر ببعضه عن بعضه .

نقب عن صغاره تحتها .. بعد لحظه سمع أنين طفله يناديـــه .. فاستدار فإذا بهم يجلسون على الجانب الآخر من الشارع تحتويهم أجنحة أمهم .





بطل النعام

ماذا لو قلت لكم أنى دائماً معهم .. تارة بروحى التـــى تهرب منى إليهم .. وأخرى بأحلام اليقظة المكبوتة فى صدرى الذى يضيق بما يحويه .

فقد رأيت طيوراً ترميهم بحجارة من سجيل .

رأيت الريح تعصف بهم .

رأيت الرجفة تصيبهم .

رأيتهم فى الشتات .

أنا جالس على أريكة عتيقة أحتسى الشاى المر .. وما حـــدث كان نتيجة سكوتى عنهم .. عندما ألتفت إليهم يصمتون .

لا يدرون أنى كغيرى متبلد لا أشعر ولا أستطيع الكلام .



أطروحات



- ١ -

لا يحق لأحد أن يسألنى عن السبب .. فهذا اختبارى .. وجهى الحقيقى .. فلم أجنى أى ثمار من تلك الأقنعة الزائفة .

- ٢ -

يمكنكم استعادتى متى شئتم .. فأنا لا أجيد نزال الأقوياء .. ولا استخدم أى سلاح .

- ٣ -

همس أحدهم فى أذنى قائلا:
انتبه .. " فأنت لن تبلغ الجبال طولا " .

- ٤ -

أصدقائى الأعزاء :
آسف .. فقد مزقتكم اربا اربا.

- ٥ -

أخى :
اعذرنى فلم أتمكن من كبح جماح حقدى عليك .
اعطنى ما بيدك ، واذهب الى الجحيم .

- ٦ -

لا تغضبوا ..
حتى تغضب القبور الجماعية مما تحوى .
فلن أقبل بغير قبر يكون لى وحدى .

- ٧ -

(سيبويه) محق :

فقد رأيت بعينى .. رجلا قتيلا مقتولا .

وصدقته حين قال:

إن الجمع .. قتلاء وقتلى وقتالى !

- ٨ -

أنا شاهد على أنهم قتلوا .. فاستشهدوا .

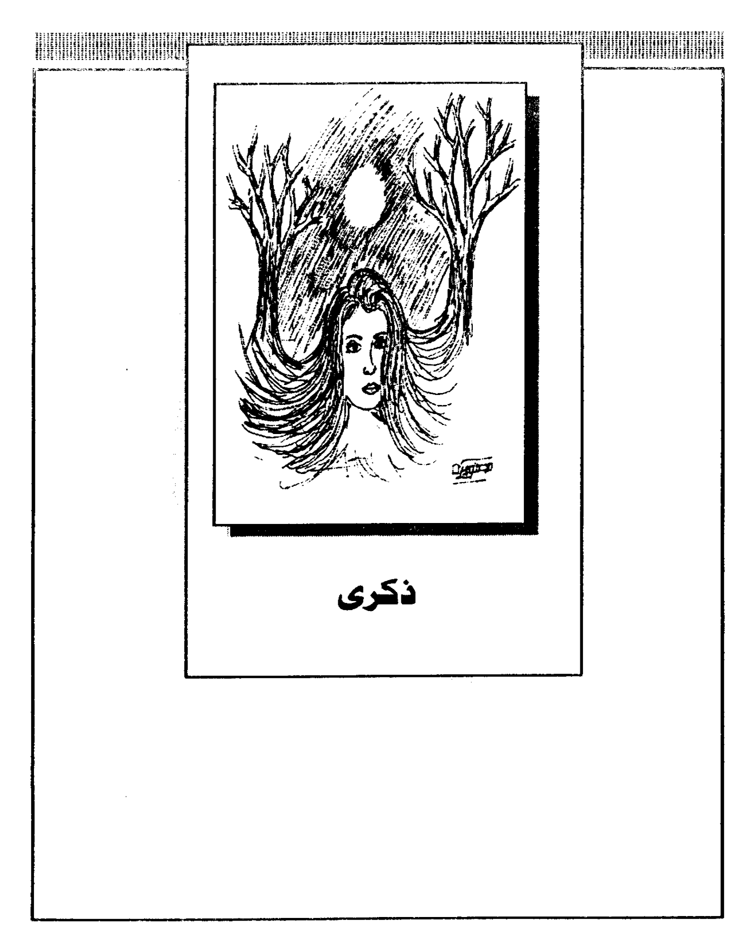
وأشهد بأنهم لم يقتلوا .. فهم أحياء يرزقون .

وتكفينى بطولة الشهادة صيفاً على الشواطىء المغلقة المزدحمة بالشهداء على حقيقتهم العارية .

- ٩ -

أبحث عن نفسى داخل نفوس البشر المتشـــابهة .. فـــلا أعثـــر سوى على مسوخ .

المخلصون منهم إلى الجحيم ، والمنافقون إلى العلى .



ذكرى

أشاح بوجهه صوب السياج الأخضر المرقط بجملة الألوان .
يحضن بلهفة واشتياق معشوقته الواهية بقلبها المرتجف .
جفلت منه كالمهرة العذراء .

عبرته بأريجها الممزوج .. بلفحة الفجر الصيفى .. ترتعش .. تتهادى كورقة فى غصن .. هى وهو وجنة الشيطان .

طوق خصرها النحيل بحنان .. ذابت أنفاسهما .. اختفيا فى الظلال والأزوقة .

كالحلم المستحيل تحقيقه .. الآن بين يديه يداعبه .. ممزوج بخيوط قمرية تخترق الأشجار .. تتلاشى وتنتقل .

يسأل المستحيل بدوام الحال .

يرد عليه صامتا :

- هذا محال .

تجيش خواطره .. ترتعد خلجاته .. ماض تافه يخزيه .. ومستقبل مجهول يؤرقه .. يعصر ملكاته بلا نفع .. يداوم ولكنه ينكسر .

يدفن رأسه فى حجرها الدافئ .. تغوص بأناملها فى خوصلاته .. قلبه يستعر شوقاً وحنيناً إليها .. غارت منهما الأشجار المحيطة .. تكاد تنطق بحفيفها.

اعتدل جالساً القرفصاء مواجهاً لها .

قائلا :

– لا بد من الرحيل حتى أكون جديراً بك !

رمقته بحيرة .. مطأطأة الرأس لأنه لا سبيل إلا هذا .

أعد نفسه للرحيل .. ذهبت معه لتودعه والدموع تنهمـــر مـــن مقلتيها ، بعد أن اخذت منه أغلى ذكرى .

تلاشى فى الفضاء الأبدى .

عادت الى أهلها ومعها جزءاً منه.

مرت الايام ثقيلة .. انقطعت الأخبار .

تقدم اليها منافس له .. كل شيء عنده رهن الإشارة .. طلـــب يدها .. ليس به أى عيب .. مع الإلحاح من أهلها وكل زويها .

اضطرت مرغمة بعد أن باتت ذكراها وحشا يؤرقها .

عاد متاخر .. محملا بالآمال ، لكنه اكتشف أنه قد تبدد ،

ثار وهاج .. كان رد فعله مجرد نظرات عابثة .. خرج مترنحا متقلا بهول المفاجأة .. لا يدرى أين هى .. وبمن تزوجت .

ظل يفكر عبثا فى الحب الذى بات مجرد وهم .

لمحها صدفة وبجوارها تجلس ذكراه .. لهث خلفهما .

التفتت نحوه ثم أشاحت برأسها عنه وواصلت سيرها .

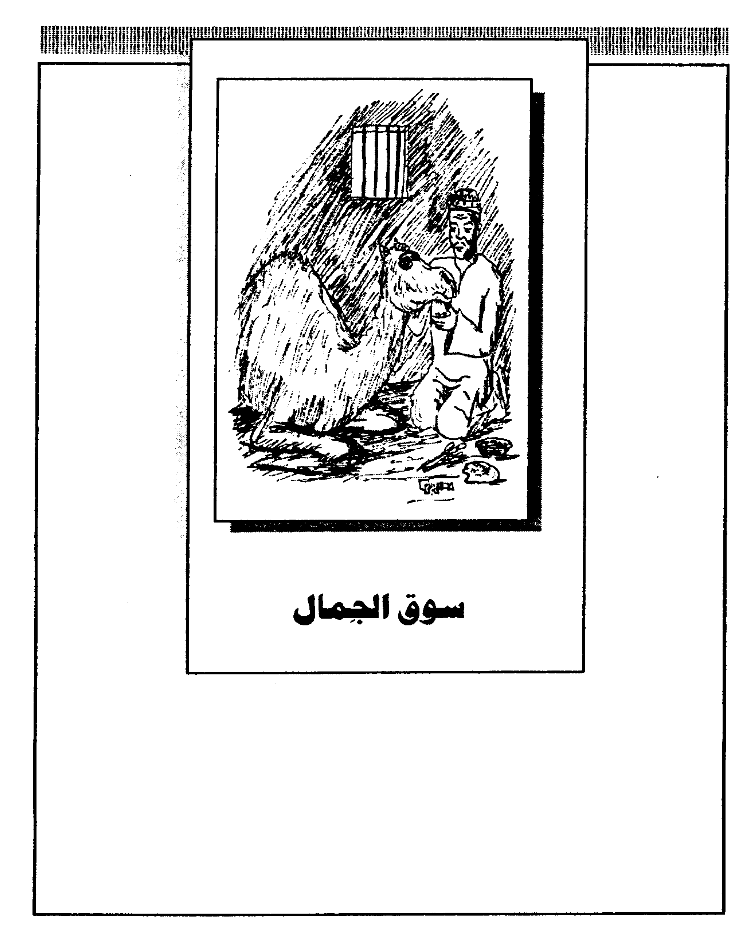
تبعها .. بدا معاتبا .. سألها :

لماذا ؟

لم تجد ما ترد به عليه .. سوى الخجل والحيرة .







سوق الجِمال



... لا يجوز أن يمر علينا هذا الرجل دائماً راكباً لجمله دونما حياء .. وكل أهل القرية يخلعون نعالهم أثناء سيرهم من أمامنا ووجوههم مغروسة فى الأرض.

قال هذا الكلام باستعلاء وغطرسة أثناء جلوسه وسط حاشيته المنتقاة بعناية .. يسندونه ويسندهم .

كل أهل القرية على يقين بما يحدث ، لا يستطيعون حتى الكلام .. ما عدا هذا الرجل الذى تربطه بجمله علاقة حميمة .

يكلم الجمل كما لو كان بشراً .. عندما يأمره ينفذ أمره فوراً .

فكر " العمدة " أن يضع حداً لهذا الرجل .. فكلف أحد الخفراء بجمع تحريات .. ليعرف كيف سيعاقب هذا الرجل الذى يعيش حياته العادية .

يعمل هو وجمله فى تحميل الأغراض من غلال ومحاصيل بالأجر لأهل القرية .

كان أول شىء فعله " العمدة " هو :

تحريض أهل البلدة على عدم استخدام هذا الجمل فى أعمالهم .

ثم قام بشراء جمل لمنافسته وخطف لقمة العيش من فمه ، وتجويعهما .. لكن لم تفلح هذه الخطة .. لصبرهما على الجوع .. وما زال الرجل يمر عليهم راكبا جمله .. لا يلوى على أحد .

اجتمع " العمدة " وحاشيته ليهتدوا إلى طريقة يبعدوا بها هذا الرجل وجمله عن القرية لأنه الوحيد فيها الذى يعرف حقوقه وواجباته .

وبينما عمى صابر فى الحقل ومعه الجمل .. سمع أحد الصبية يزعق :

- الحق يا عم صابر العسكر راحو لك الدار وبيسألو عليك .

انتبه عم صابر لكلام الصبى .. كان ممسكاً بزمام الجمل .. هز رأسه الملفوف " بالمنديل المحلاوى " عابثاً كما لو كان متوقعاً ما سيحدث .

على مرمى بصره رمقهم يهرولون تجاهه .

تبسم ساخراً ثم أشاح بوجهه عنهم .. حتى وصلوا عنده :

- " إنت صابر ؟

- أيوه يا بيه .

- وده جملك ؟

- أيوه يا بيه .

- طب هاته وتعالى .

- على فين يا بيه .

بكبرياء وغطرسه :

– ما تتكلمشى كتير .

أومأ برأسه ثم أطبق على زمام الجمل .. وتبعهم .

أثناء سير عمى صابر لمركز الشرطة .. فكر فى النزول إلـــى سوق الجمال لكى يبيع الجمل حتى يريحه من هذا الاضطهاد ثـــم دار بخلده أن السوق هذه الأيام ملىء بالجمـــال الجـــوعى .. وإذا ذهب به سيحدث ما حدث له حينما فكر فى بيعـــه لحـــل ضـــائقة أحلت به سابقاً.

حينها دخل السوق المحاط بسياج من السلك الشـــائك .. عليـــه سحابه من الغبار تغطى الجمال المنهكة وبعـــد أن اهتـــدى إليـــه المشترى واتفقا على الثمن .. وجد روحه تسلب منه فأفـــاق مـــن غفلته .

رفض البيع بعد نظرة عتاب من الجمل .. سحبه .. وخرج من السوق .

وصل عمى صابر مركز الشرطة .. أبرك الجمل .. نزل مـــن فوقه .. ربت على رأسه .. سكن ينتظر ما سيحدث .

زعق عليه أحد الأفراد بصوت جهـــور .. فاســـتجاب عمـــى صابر.

أدخلوه غرفة يجلس فيها بعض الأفراد المتعالين على أكتـــافهم النجوم تبرق .. همس أحدهم بصوت مسموع :

- لا بد من التخلص من هذا الجمل كما أوصانا " العمدة " .

قاطعه عمى صابر :

- " ليه يا بيه " ؟

رد عليه بغطرسة واستعلاء :

- " لأنه مسعور".

بُهتَ عمى صابر ثم أردف :

- " مسعور إذاى يا بيه .. أنا جاى راكبه .. هـو الآن فـى مناخه مستكينا " .

لم يبال أحدٌ بما قال عمى صابر .

صدر الأمر بحبس عمى صابر وجمله سويا .. عقاباً لهمـا .. أدخلا محبسهما .. كانوا يخرجوهما كل يوم لمـدة سـاعتين فـى الحوش ليتسلوا بهما .. لكى يشاهدوا العلاقة بين الرجل والجمـل المسعور .

أثناء ذلك رمق عمى صابر ابنه قد أتى لزيارته .. معه لفافـة فيها طعام .

أوماً إليه برأسه .

حضر إليه معانقا .. أعطاه اللفافة .

همس فى أذنه :

- " لم أجد أكلا للجمل " .

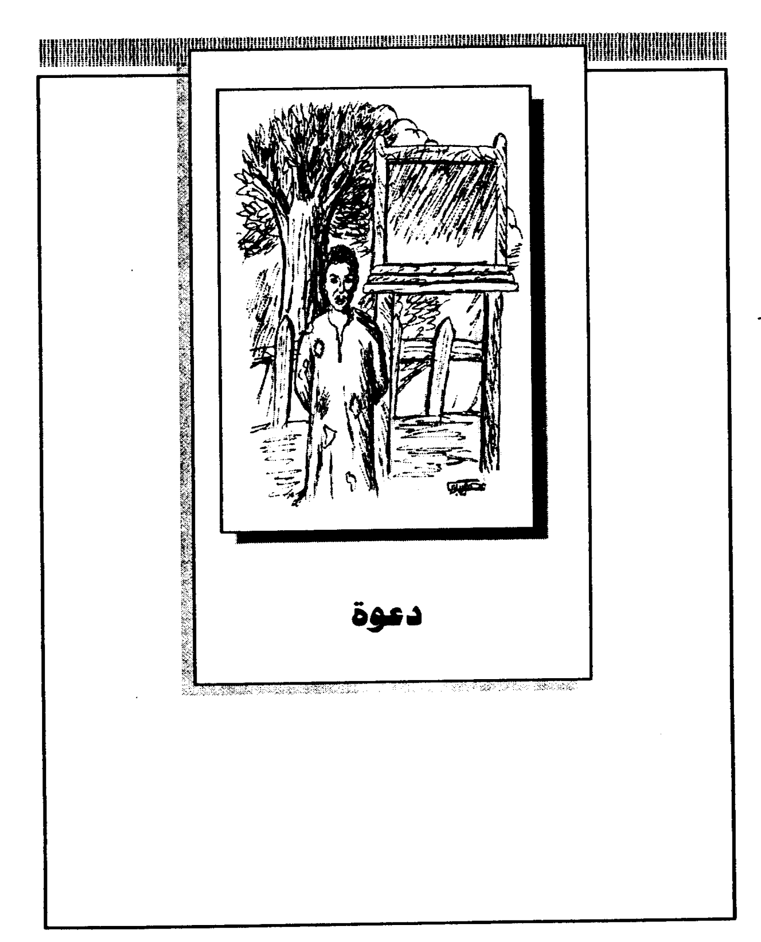
نظر إليه عمى صابر حانياً .. فتح اللفافة .. أخرج منها كسرة خبز .. وضعها فى فم الجمل .

فوجئ عم صابر بعمدة القرية يربت على كتفه ويقول :

– خد جملك وروح يا عم صابر .

لم يطل اندهاش عم صابر حينما التفت نحو النافذة ليجد المأمور مطلاً منها .





دعوة

(١)

وصلتنى دعوة من صديق لى .. يعـيش فـى قريـة صغيرة جداً فى حضن الجبل بإحدى محافظات الصعيد ، وحيث أننى أقطن القاهرة .. فهذا يستلزم منى مشقة وعناء كى أسافر إليه .. خصوصا أن هذه أول مـرة أذهب إلى مثل هذا المكان .

وبما له عندى من معزة خاصـة جـداً ، واسـترجاعاً للأيـام الخوالى التى قضيناها معاً أثناء المرحلة الجامعية فـلا بـد مـن خوض تجربة السفر هذه ، بيد أنه قد حكى لى فى السـابق عـن طبيعة قريتهم الخلابة الممزوجة بالخضرة ورمـال الصـحراء ، وبما أننى أيضا أحب روح المغامرة والاستطلاع فكان هذا حافزاً لى على خوض التجربة وقضاء عدة أيام معه .

على أية حال فأنا عاطل ، ولم أستطع الحصول على أية فرصة للعمل بعد تخرجى .. خصوصا أنه لم يكن خالى نقيبا ولـم يكـن ظهرى قويا .

(٢)

بعد صلاة الفجر و احتساء قدح من الشـاى .. شـرعت فـى الذهاب إلى محطة القطار وحقيبتى معى.. حجزت تذكرة الذهاب.

وضعت حقيبتى على الرف فوق رأسى وجلست .. بعد لحظات لمحت فتاة تسير بين الكراسى تنظر يميناً ويساراً باحثة عن كرسى غير مشغول . أخيراً استقرت عيناها على المقعد المواجه لى .

حينها تذكرت فاتن حمامه .

ثم قالت بابتسامه متكلفة لكنها رقيقة :

- لو سمحت .. ممكن أقعد ؟

أجبت أيضاً بابتسامة يشوبها بعض الخجل :

- " اتفضلى " .

قمت بمساعدتها فى وضع حقيبتها أعلى الرف .

تحرك القطار .. ونحن نختلس بعض النظرات بحذر متبادل .. كانت نسمات الصبح الرقيقة تتسرب إلينا عبر النافذة .. تداعب شعرها الحالك السواد .. ثم تقوم بإعادة ترتيبه فى خيلاء باسمة .

أخذ القطار طريقه يتلوى داخل الحقول والفضاء .. كل شئ ينصرم من جانبنا مسرعاً .

بدأت أسمع طنين أغنية " يا وابور الساعة إتناشر يا مجبل ع الصعيد " .. وتارة أغنية " يا وابور قلى رايح على فين" ، أنا أعلم أن الوابور لن يقدر أن ينطق كغيره.. مع العلم أن صديقى هذا كان معظم الزملاء فى الجامعة ينفرون منه لأنه كان دائماً

الوحيد الذى ينطق ويتحزلق ويتفلسف كثيراً لأن معظم الأوضـــاع لا تعجبه ولا ترضيه .

كان دائماً يرفضها بشجاعة وإقدام أهل الصعيد .

وعندما ينبهه أحد يقول :

– هيجْرَىَ إيه يعنى أكتر من كده .. ما ياخد الـروح إلا اللـــى خالجها .

هو يريد المدينة الفاضلة .. كان كمن ينطح رأسه فى الصخر .

كنت دائماً أنصحه بأنه لو استمر هكذا سيأتى يوم ويذهب عقله .. لكنه كان دائماً مُصراً .. مع العلم أنه استمر هكذا .. ولم يحقق شيئاً .

(٤)

أثناء تهدئة القطار لمحت لافتة عتيقة مستقرة على عمودين من الحديد مكتوب عليها اسم القرية ، لفت نظرى شاب يقف بجانبهـــا .. مهلهل الثياب .. رث المنظر .. زائغ العينين .. يتلفــت يمينــاً وشمالاً كمن يبحث عن أحد .

استقر القطار على القضبان أمـــام الرصــــيف .. هبـــت الفتـــاة الجالسة أمامى من مقعدها لتحمل حقيبتها .. حينها تأكدت أنها من نفس القرية .. على عجل قمت أنا الآخر بحمل حقيبتى .. نزلنـــا سوياً نتبادل بعض الكلمات بتحفظ .

بعد أن لمست قدماى الرصيف .. وضعت حقيبتى الأرض .

وقفت أتلفت نحو أى أحد أسأله عن الطريق المؤدى للقرية .

لأنى اكتشفت أن المحطة فى الخلاء وأدركت أن القرية من الجائز أن تكون بعيده .

ودعتنى الفتاة بابتسامه رقيقة .. كان فى انتظارها سيارة بها اثنان من الرجال أحدهم حمل عنها الحقيبة والآخر غمرها بابتسامة شعرت بعدها بالغيرة ، وأخذها من يدها وصعدا سوياً .

(٥)

تلاشى الجميع وسط الحقول المترامية ولكن إلى أين تحديداً.. ؟

– " لا أدرى " .

أثناء ذلك كان قد رمقنى ذلك الشاب المهلهل الواقف تحت اللافتة .. وجدته يتجه صوبى باسما ثم مرحّباً ومهللا ثم معانقاً .

لم أتعجب كثيراً أن هناك من يعرفنى فى هذا المكان لأنى قد أدركت أنه صديقى صاحب الدعوة .

هممت أن أسأله :

– ماذا حدث لك..؟

رد مراوغاً :

– سأخبرك بما يدور فى رأسك .

أطبق بيده على حقيبتى .. نزلنا سويا بعض الدرجات الجانبية من سلم المحطة ومواجهًا لنفس الطريق الذى سلكته سيارة الفتاة .

قمت بسؤاله :

– هل البلد بعيده ؟

رد معاجلا :

– لا .. مسافة نصف كيلو .

كان الطريق ضيقاً يشق الحقول ويتلوى بين الأشجار والنخيل المحمل بسباط البلح الكهرمانى .. لم يعطنى فرصة للكلام .. أنا أيضاً انشغلت بجمال وروعة الطبيعة الخلابة .

على البعد لمحت قمة جبل بجانبه بعض البيوت المتناثرة والغير منتظمة ، حينها أدركت أننا قد وصلنا .

(٦)

على مدخل القرية وجدت جمهرة من الأطفال فى انتظارنا .. ملابسهم متواضعة .. القليل منهم واضح أن ملابسه ثمينة .

عندما لمحونا .. همسو فى آذان بعضهم البعض .

انطلقوا نحونا كالغنم المذعورة .

التفوا حولنا فى دائرة وهم يصيحون:

– المجنون أهه .

قام صديقى وفى يده حقيبة ملابسى يزيحهم قائلاً :

– ابتعدوا قليلاً .

لكنهم تتبعونا مهللين وزفونا خلال ديار القرية ، على جانب الطريق لمحت بعض الرجال الواقفين أمام محل حقير للبقالة يبتسمون كأنهم معجبون بما يحدث لنا من الأطفال .. إلى أن وصلنا أمام أحد الأبواب الخشبية العتيقة .

أدركت أن هذا باب داره .

(٧)

دق الباب .. فتحت لنا امرأة عجوز وجهها معروق .. ملامحها حادة .ترتدى جلباباً ريفياً أسوداً .. تربط رأسها برباط أسود أيضاً .. عليها شيء من الوقار والهيبة .. رمقتنى بنظرة حادة .

قالت :

– اتفضل يا بنى .

دلفنا إلى وسط الدار حيث توجد دكة خشبية .. بجانبها زير الماء وبعض صفائح الحمام المعلقة فى سقف الدار ويقف عليها الحمام .. وسلم طين .. تحته تنور وبجانبه فأس ومحراث وبعض أدوات الزراعة البدائية .

جلست على الأريكة الخشبية .. لا زال السؤال عالقا بذهنى .

الغريب أنه قام بالإجابة دون أن أكرر السؤال .. كأن الإجابة أيضاً عالقة بذهنه .. قال مباغتاً :

– " خالى " .

نظرت إليه متعجباً .. تبسم ساخراً .. وقال :

لا تتعجب .. إنها قصة طويلة سأوجزها لك حتى تستريح وتنتهى أمى من تحضير الغداء .. الأيام أمامنا .. سأشرحها لك بالتفصيل .. ثم أردف .

– خالى هو شيخ البلد .. يمتلك نصف زمامها ويعد ابنه ليخلفه .. لكنه لا يكتفى بشيء دائماً ينظر إلى ما عند غيره ..

سلب معظم أرضنا وأرض أهل البلد ضمها لأرضه .. هو الوحيد أيضاً الذى يمتلك كل تجارة القرية .. يقوم بتخزينها ثم طرحها فى السوق السوداء .. ترك زمام الأمور فى أيـدى خاصـته الـذين أشعلوها ناراً على الجميع .

خرجت من جوفه زفرة ملتهبة واستطرد قائلاً :

– الغريب أن ابنته تعارضه .. بيد أنه علم أننى أحبها بعـد أن تقدَّمْت لخطبتها .. أشاع فى البلد أننى مجنون .. أدخلنى المصحة فترة .. كان يعطى الأطفال بعض الحلوى ليزفونى ويشيعوا فـى البلد أننى مجنون ، لدرجة أننى كدت أصدق أننى مجنون فعلاً .

(٨)

أثناء ذلك الحديث كنا قد انتهينا من تناول طعام الغداء .. كـان بداخلى شئ يلح بالخروج من الدار لتفقد تلك القرية .. طلبت منـه ذلك وعلى الفور وافق وخرجنا سوياً .. وهو ما يزال يتحـدث .. كان العصر قد دخل علينا.. أثناء سيرنا رمقت منزلاً فخماً أشـبه بالقصر .. فى شرفته تقف الفتاة التى حضرت معى بالقطار .

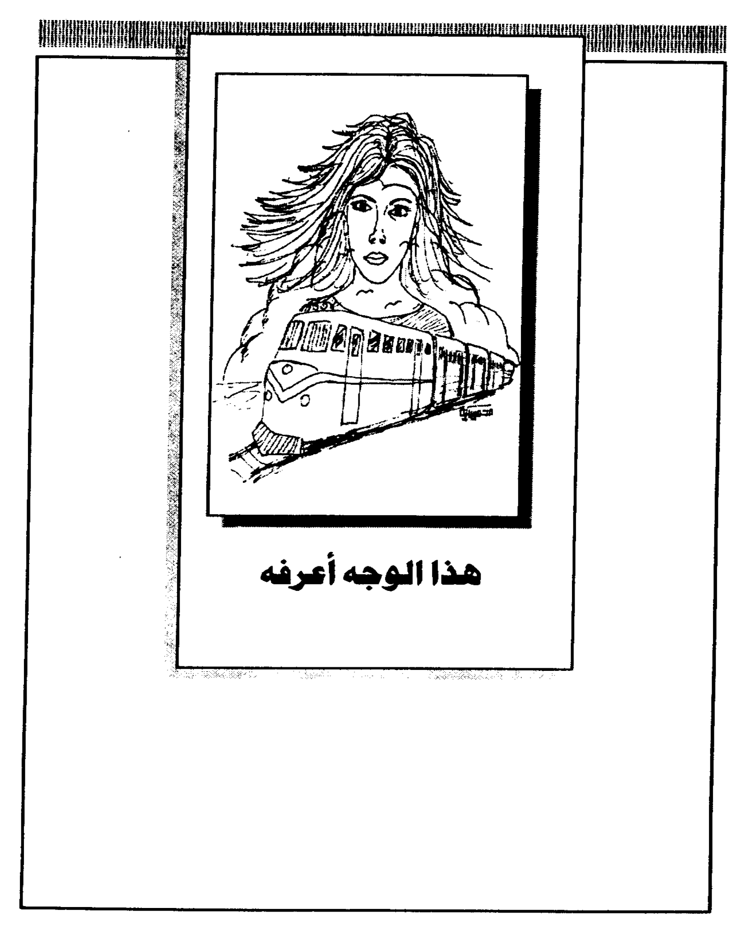
سألته متملقاً الفتاة :

– من صاحب هذا المنزل ؟

رد علىَّ شارداً :

– خالى !





هذا الوجه أعرفه

..كالطير السابح فى الظلام الدامس يتخبط فى طياته .
كان خياله المتسرب من خلال النافذة المطلـــة علـــى الحديقة التى تعج بالمدعوين والمهنئين .
وحبال المصابيح المتراصة ..المتوهجة تنير ما حول المكان .

وهو قابع على مقعده أمام النافذة .. يتأمل ويدقق تارة ، وتارة أخرى يلوى بوجهه .. حتى أبصر فتاة شعر بأنه يعرفهـــا ولكـــن أين ومتى ؟ .. لا يتذكر.

بلع ريقه .. امتلأ صدره بالشهيق وهو يحدق فيها مـــن خـــلال النافذة .

كان وسط الحفل قبل أن يمتطى السلم الخشبى وهو غير متزن وفى حالة دوار كأنه فى أعالى البحار منذ أيام .

وفى أرجاء الحديقة وجنباتها وخلف أشجار السيسبان والقرنفل وغيرهما أخذ ينقب عنها .. ظل يمعن النظر فى وجوه المدعوين باحثا عنها ولكنها كانت قد اختفت .

أخذ الدوار برأسه .. وقع مغشياً عليه من شدة التعب .. التـــف حوله الرهط .

زعق أحدهم وقال :

- لم يحدث شيء .. تفضلوا .

سعى إليهم ثلاثة رجال سود الوجوه .. عليهم ملابس بيض .

حملوه إلى غرفته حيث السرير .

قال أحدهم :

- سأحضر الطبيب .

- هز رأسه رافضاً .

خرجوا جميعاً حيث استأنف الحفل .

أفاق من غفوته .. تحدث إلى صاحبه من خلال الهاتف .. عنها وعن رغبته فى الذهاب إلى الإسكندرية لإنجاز بعـــض الأعمـــال المهمة .. وأخبره بأنه قام بالحجز فى اكسبريس العاشرة صباحاً.

طلب بإلحاح من صاحبه الحضور لتوصيله الى محطة القطـــار كى يخبره بالتفصيل عما حدث فى الحفل .

الصهللة ودق الطبول لم تنته إلا ببزوغ الشمس .

أغلق النافذة ..أسدل الستارة .. اعتلى السرير .. راح فى سبات عميق .

ركب القطار .. جلس بجوار النافذة بعد أن وضع حقيبته أعلى الكرسى فى المكان المخصص لذلك .

أعمدة التليفونات .. الأشجار كانت تنصرم من جانبه بسـرعة مذهله وهو يحدق فيها من خلال النافذة كما لو كانت هـى التـى تتحرك وهو ثابت مكانه لا يتحرك .

أغمض جفنيه برهة .. تثائب بكسل .. فـرك وجهـه بكلتـا راحتيه .. تنفس الصعداء .. لملم نفسه .. ضغط على زر بجانبـه .. حضر ساعى القطار .. طلب منه فنجاناً من القهوة .

على عجل أحضرها له .. أخذ يرتشف منهـا .. ومـن بـين كراسى القطار المنظمة والموحدة مرقت فتاة الحفل عندما كان يهم بأخذ رشفة أخرى ..لكنه لم يتمها .. اهتزت يده .. وضع الفنجان أمامه .. انتفض من على مقعده واقفاً .

هرول بين ضفتى الكراسى ليلحق بها وهـو يلقـى بنظـرات سريعة وفاحصة فى وجوه الركاب .. لكنه وجد نفسه واقفاً علـى الباب الخلفى للقطار .. لم يبق أمامه سـوى أعمـدة التليفونـات المنصرمة .

نظر لأسفل فإذا بالقضبان تنفلت من تحت قدميه بسرعة مذهلة.

جفل للخلف من شدة الهلع .

أخذ يصرخ .. يناديها بأعلى صوته .

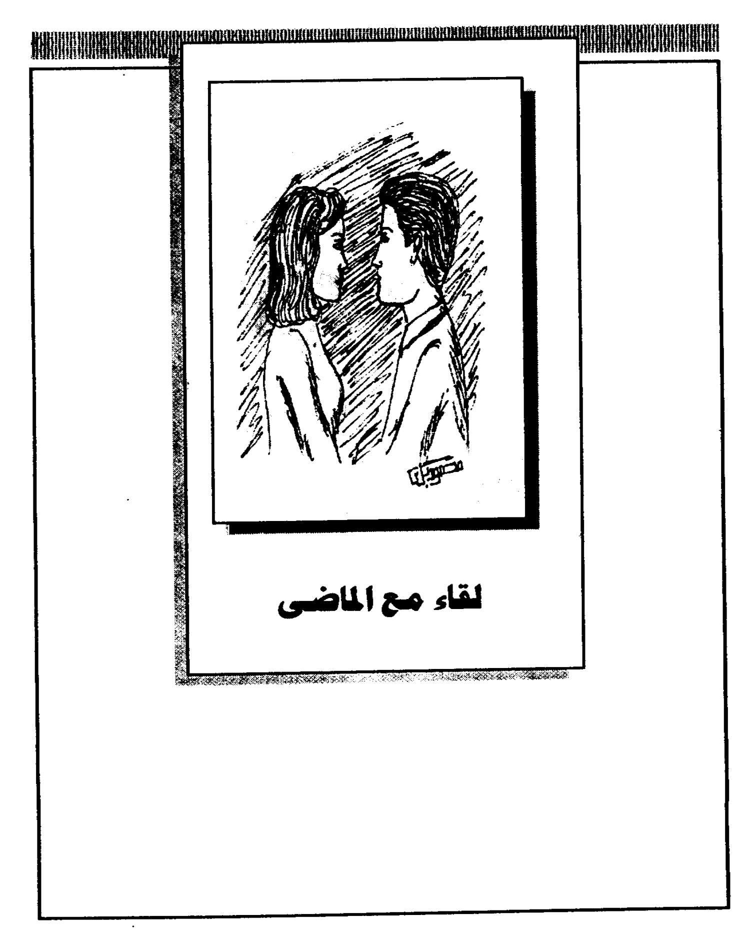
سمع صديقه الصراخ بعد أن فتح له الخادم الباب .

صعد السلم مسرعاً .. أمام سريره وقف مذهولا .. على عجل جذب الغطاء من عليه .. أمسك بيده .. أيقظه .

سأله باستغراب مستفسراً عن هذا الصراخ .

رد عليه وهو منتبه :

لا شيء .. من فضلك أوصلني إلى محطة القطار.



لقاء مع الماضى

تمر قبالتي كالطيف.. أرمقها .. كأن الشـــمس تســـطع من جبينها .. لا علم لى بشيء عنها .. إلا بما أبصره .. الجمال الفاتن .. القد الممشوق .. ضحكتها الرنانـــة .. ابتسامتها العزبة تلفحنى .

أتوق لمجرد التفاتة – همسة – تمرق من أمامى على عجــل كالنسمة العليلة ..تُسكن لهفتى .. ظمآن أراها .. أشعر برطابة .. أحاول أن أحدثها .

ترتسم على ثغرها بسمه تكبلنى .

أتراجع .. أتعبث بى ؟! .. لا أعتقد .. العشق هى .

اعتادت المراوغة .. وأنا تعودت الانتظار الثقيل .. طال بى .. ولا تساعدنى لهفتى أن أقطعه .

هناك شيء من الأمل المؤكد .. يجـــذبنى نحوهـــا .. تفـــر .. تراوغ .. لم يعرف اليأس طريقة لى بعد .

أنتظر لقاءها بشوق ولهفة .. أكاد أجن بعشقها .. لهفتـــى إلـــى رؤيتها تسمو بحبها .

في اليوم الموعود .. أبصرتها .. ارتجفت شفتاى .. جف ريقى .. اضطربت .. شعرت بتغير وجهى .. سمعت خفقــان قلبـــى .. جسدى يثور .. يتمرد منى .

هل حان وقت اللقاء مع الشمس ..؟

أشعر بذلك .. لأنى أحس بنبضها .. خفقان قلبهـــا .. عيونهـــا الزائغة .

وجدتها مثلى وما أصابنى قد أصابها .

تكلمت عيناها مراوغة .. احتارت عيناى بـــالجواب .. علـــى استحياء تحركت شفتاها .. ارتسم ثغرها بابتسامتها العذبة الحائرة .. لم تجد لها ريقا تبلعه .

قلت لها خجلاً :

– أنشدك.

تبسمت فى حيرة .. لم تنطقها شفتاها بل عيناها .

تمردت منى .

تلعثم لسانى وأنا أقول :

غداً فى نفس الوقت وفى نفس المكان .

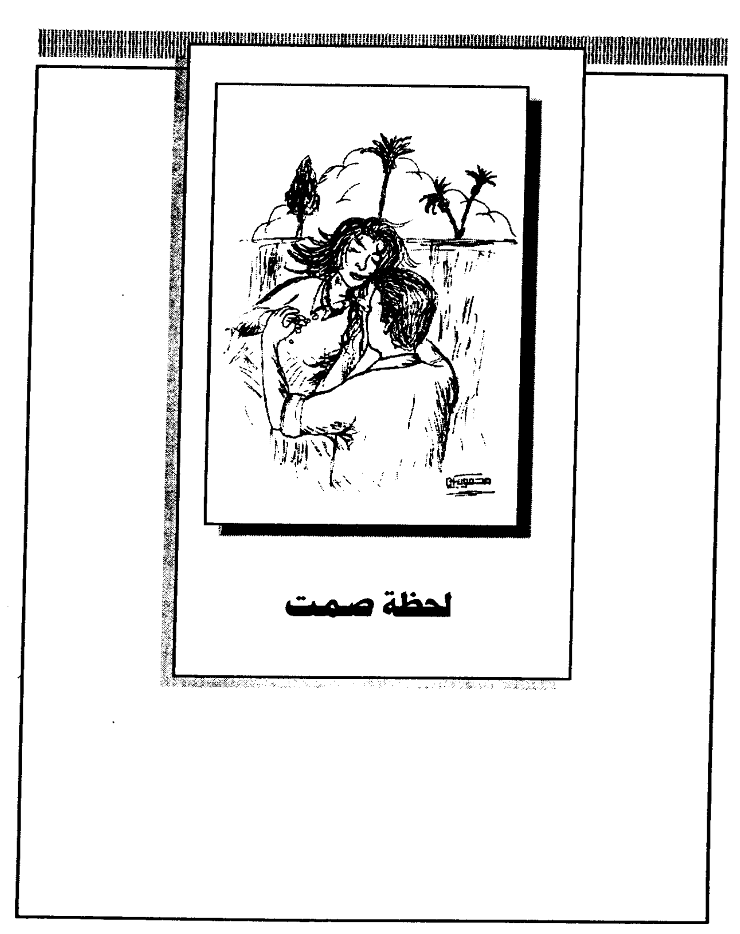
اختفت كالطيف .

عندى إحساس مؤكد بأنها ستعود .

انتظرت الموعد على ثقل .. وعندما حـــان شـــعرت برجفـــة وخوف .. أواسى نفسى وأقول :

بالتأكيد ستحضر .

رأيتها من بعيد .. أزداد توتراً كلما دنت مني .. أسرع خفقـــان قلبي .. جسمي ينفر مني .



لحظة صمت

تعودت الجلوس فى الليالى القمرية وسط الغيطـان .. لأسرى عن نفسى .. وذات ليلة وأنا جالس .. أنظـر إلى القمر .. ومن حـولى الأشـجار كثيفـة تـتلاطم فروعها .. وأمامى ترعة صغيرة بها كمية قليلة مـن الماء الراكد .

نقيق الضفادع يتنافس فى الوصـول إلـى أذنـى .. أصـوات الحيوانات تعلو من المزارع .. وإذ بى تنتابنى رعشه لم أشعر بها من قبل .

وسألت نفسى:

لماذا لم أشعر بهذه الرعشة من قبل ..؟

أيضاً لماذا هذه الأصوات التى تبعث الفزع فى روحى ..؟

تاهت الإجابة منى .. مع أننى تعودت الجلوس فى هذا المكـان فى معظم الليالى القمرية .. ونسّتنى الأصوات السؤال والإجابـة معا .. وفجأة .. شعرت برجفة عنيفة .. رأيـت نفسـى أسـتعيد شريط ذكرياتى كأنه يمر من أمامى .. تـذكرت الإنسـانة التـى ضحت بحياتها من أجل حبها .. ولماذا فعلت هذا فى تلـك الليلـة المشؤومة التى تواعدنا أن نلتقى فيها ؟

فى الميعاد حضرت .. كنت قد سبقتها إليه مثل كل ليلة .

كان الليل قد كسا الغيطان .. توارت العيدان وغطاهـــا الظـــلام بالسواد قبل بزوغ القمر بوقت قصير .. وهى فى طريقها نحـــوى .. وإذ بذئب ضخم يهجم عليها فجأة من وسط الزروع وأنا علـــى بعد ليس بقليل .. وإذا بى أسمع صرخة مدوية من بين الحقول قد رنت فى أذنى .. أخذت أسرع والعيدان والوحل فى طريقـــى لـــم يقللا من سرعتى .. عندما وصلت إليهـــا وجـــدتها غارقـــة فـــى دماءها.

تسمرت قدماى .. الذئب على بعـــد خطـــوات قليلـــة منهـــا .. ارتجفت من منظر الذئب .. أخذت أتلمس جسدها .. لكنهـــا قـــد فارقت الحياة .

رشقت بصرى فى الذئب بنظرات تشع عنفاً ، وعينى فى عينيه اللتين تشعان كرهاً .. أخذت أبكى .. أتحسر لأنى لم ألحـــق بهـــا لأنقذها .. لكنى لم أسمع إلا صرخته‍ا .. أكملت معها حديثى - أنا مدرك بأنها لن تحرك ساكناً - عن زواجنا الذى كان قد حان بعد أيام قلائل .. وما فعله هذا اللئيم .. عاودت النظر إليه ثانية .

شعرت بأنه فهم ما دار بيننا من حوار .. كأنه نادم على فعلتـــه هذه .. وجدت فى عينه دمعة تقطر .

صاح يعوى كأنه يقول لى :

- خذ بثأرك منى .

لم أعرف شيئاً عن حبكما .. ظللنا نتبادل نظراتنا فى صمت رهيب .. وجدته ينصرف من أمامى متسللاً فى خزى نادماً على فعلته الشنعاء .

انتبهت .. وجدت أمامى رجلاً طويلاً بجلبابه الأسود فى ضوء القمر الخافت يقول لى :

يا بنى إننى أقف أمامك منذ ساعة تقريباً وأنت لا تدرى .. ما بك ..؟

سألته :

– من أنت .

قال :

– أنا عابر طريق .

أخذ بيدى .. وقفت .. وعادت الأصوات كما كانت من قبل .. الأشجار تتلاطم فروعها .. ونقيق الضفادع .. وأصوات الحيوانات لا زالت تعلو من المزارع .







رحلة مع الأشباح

ظلام دامس خيم على غرفتى .. هناك شبح فى ركـن منها .. يتقافز من مكان إلى آخر .. تتكاثر الأشـباح .. يتصارعون لكى يفوز أحدهم بى .. السرير يتأرجح .. عيناى تحملقان فى جنباتها .. انصب بصرى على عتيقهم .. فقد فاز بى .

يدنو منى .. جوانحه تطوى الظلام .. وهواء ساخن يلفحنى .. يطبق على صدرى .. يقذف بى إلى خارج الغرفة .. هناك رقص وغناء وطبول .. تدوى فى الأفق .. أهرول لأعرف ما هذا .. صوت عجوز شمطاء .. ينادينى :

ألتفت نحوها .. لم أجد شيئا .. جسمى يرتجف .. السواد الحالك يخفى كل شئ تحت طياته .

أسمع صوت (ناى) ينساب شجنا .

أصغى جيدا .. أكاد أحدد مصدره .. أهرول نحوه .. أكتشف طريق الغفلة .. طريق الجبانة .. صمت يعترينى .. إن أمى فيها.

أشعر بحنين مشوب بالخوف .. لكننى سأذهب إليها .. إننى فى اشتياق لحضنها الدافئ وحنانها الجارف .

جسدى يرتعد .. أين أنت يا مهجة صبابتى ؟
يموج صوت فى داخلى :
– لا تخف وتقدم يا بنى .. إن الله معك .. لا تبتأس .
تنهمر من مقلتى الدموع بغزارة .. لحنان محروم منه .. لهفة أم على وليدها تحتضننى :
– ما بك يا ولدى ؟
– إننى فى صراع دائم يا أماه .. الظلم يلاحقنى .
تجلد يا بنى ، وتحلى بالصبر والإيمان .
ذاب صوتها فى الفراغ اللانهائى .
ودَّعتها .. عدت أدراجى .. لكن اختلفت الطريق منى ، وجدت نفسي على شاطئ بحر مجهول الهوية .
أبصرت المياه الداكنة وسكنت .. لملمت نفسي .. ترامى إلى مسامعى هدير المياه وصراخ طيور النورس .. رمقت بعضاً من العوامات تتهادى على صفحة الماء برفق .. بعض الأصوات تصل بالكاد إلى مسامعى .. لا أرى أصحابها .. أتوق لمنقذ لى من هذا الطريق .. أظنهم أناس يمرحون .. يلهون .. يضحكون .. يلعبون .. بعضهم فى الماء والآخر خارجه .
جال بخاطرى طيف من أحبها واختارها قلبى وقررت الذهاب إلى هذه الرحلة من أجلها.

دنوت منهم لأشاركهم .. عدوت صوبهم .. لأنقذ نفسى من هذا الطريق .. كلما دنوت منهم .. تلاشت أصواتهم .. أراهم أجســاداً دون ملامح ..أقنعة ملونة كثيرة .. قــردة يتقــافزون .. مســوخ مجهولو الهوية .. أشباح هلامية .. لم يتركونى بعد .. يدنون منى .. يلتفون حولى .. يضحكون .. أصواتهم تتسرب فــى الفضـــاء الأبدى .. الظلام يبتلعهم .

صوت أحدهم يصرخ فى أذنى :

– سنحتفل بك على هذا الشط الطويل .. هــذه نــار .. وهــذه أسماك .. وهذا شراب وبك يكتمل الحفل .. يتجمعون .. يلتفــون حوله .

تضيق علىَّ الدائرة شيئاً .. فشيئاً .

شعرت بأنه لا ينقصهم سوى الشواء .

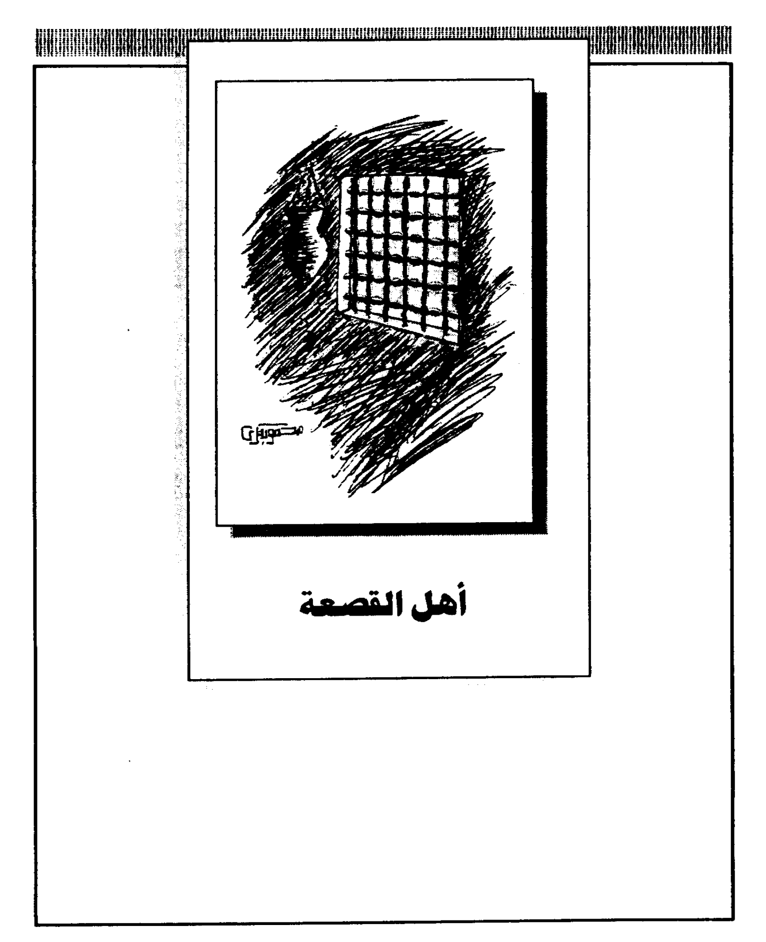
أحدهم يضع يده على كتفى ويهزنى بعنف :

ما بك ؟ لا تخف .. لن تشعر بشئ .

جذبنى آخر من ذراعى بعنف :

انهض بسرعة .. لقد أعددنا كل شئ من أجل الرحلة .





أهل القصعة



اعتلى الإمام منبره فى خطوات محسوبة بتؤدة ووقـــار .. وبرشاقة بالغة استدار وأضـــحى مواجهـــا للجمـــع الغفير الذى ينتظره .
الجميع فى حاله من الترقب لا يحركون ســـاكنا وأنـــا قابع القرفصاء وكأن على رؤوسنا جميعًا الطير .

عندما بدأ فى الكلام .. بدأوا يتنبهون .. منهم من يهز رأسه .. يتظاهر بأنه فاهمٌ .. ومنهم من تراه فاغراً فاه .. ومنهم من تـــرى فى عيونه توبة .. من الجائز أن يتبعها ندم .. منهم من يتـــأرجح يميناً وشمالاً وقد أخذته الجلالة ومنهم من يعبث بأصبعه يـــتفحص جودة البسط أو ترك رأسه لغيره يحاول أن يعثر لمشاكله عن حل ، ومنهم الذى يفتح ويطبق جفنيه فى أوقات يحددها هو .. ومـــنهم من تشعر بأن الريح قد قذفت بهم مـــن مكـــان آخـــر كالفضـــاء الخارجى لا يشعرون بغيرهم .. ومنهم الخاشـــع الـــذى يشـــعرك بوجود الملائكة وهى تحفهم .. ورائحة المسك تفوح منهم وكـــأن أنفاسهم تسبح بحمد ربهم .. ومنهم من يبحث بداخله عن الإنسان.

ورغماً عنى كانت عيناى تدوران فى محجريها تجوبان أرجاء المكان .. وعلى حين غرة رمقت أحد الجالسين يرتـــدى جلبابـــه

الأبيض الناصع .. يطبق فى راحته على مسبحة معدنية طرفهـا ناصع ظاهر .. يعبث بها .

تسمرت عيناى عليه .. لعب الشيطان برأسى لحظة .. لأن هذا الرجل مسئول كبير .. كانت هناك مظلمة وفى يده هو حلهـا .. وبعد رحلة عذاب بين المكاتب دلونى عليه .

وبلهفة الخلاص دلفت إلى مكتبه بعد أن استأذنت بتواضـع .. عرضت عليه حافظة من الأوراق المليئة بالتوقيعات والأختام التى لم أعرف مدى أهميتها .. كلها تحمل اسم عجوز تبحث عن معاش زوجها الذى فارق الحياة هو وابنهـا الوحيـد وتركاهـا وحيـدة وتحملت أنا هذا العبء لأنى كنت الصديق الوفى لابنها الذى كان باراً بوالديه .

رشقنى بنظرات مروعة .. بغطرسة قال :

" ماذا تريد ..؟ " الأوراق مازالت فى يده .

شعرت حينئذ بأنى طالب إحسان وهذا الرجل هو الذى يوزعـه على البشر .

تمالكت نفسى حتى لا تضيع الفرصـة علـى هـذه المسـكينة طريحة الفراش .

أخذ يتصفح الأوراق بتراخ ، ثم نظر إلىَّ ثانية .

قال باستعلاء :

– " بعد شهر " .

مر الشهر كدهر .. ورجعت إليه .

فقالوا لى :

ذهب إلى المصيف وسيعود بعد إسبوعين .. حينها شعرت بأن أوصالى تمزقت ، وجسدى أصبح خائراً ولا أقوى على الوقـوف .. أطبقت بيدى على أحد الكراسي وجذبته وجلسـت عليـه وأنـا أترنح والسادة الموظفون ينظرون إلىَّ وثغورهم مفتوحة ببلاهة لا يلوون على شئ وأنا أسأل نفسى :

ماذا سأقول لهذه المسكينة التى تحتاج للعلاج والمأوى ؟

استجمعت قواى وخرجت منطلقا .. وعلى قمة الشارع لمحـت ازدحاماً على باب منزلها وبعضاً من أقاربها يتناقشون فيما بيـنهم عمن يحضر كفنها .

عندئذ أدركت على الفور أنها قد لحقت بربها .

لملمت نفسي وانتبهت .. رمقته ما زال يعبث بمسبحته محـتلاً الصف الأول .







التائبة

على غير موعد التقتها صديقتها تتبختر فـي خـيلاء بعرض الشارع .. كأنه لم يوجد على ظهـر الأرض مثلها .. هذه المقابلة جاءت بعد وقت طويـل منـذ أن كانتا سوياً بالمدرسة الثانوية .. اسـتوقفتها .. عانـت بعض الوقت للتعرف عليها .

أثناء هذا الوقت كانت مصب نظرات العـابرين والـواقفين .. ومن لم ينبهه خيلاؤها تنبه من رائحة العطر التى تفوح منهـا .. ولباسها الذي يكاد يبرز جميع مفاتنها التى امتلأت رشـقاً بسـهام الناظرين إليها .. وبعد أن تعارفا .. قالت لها :

إنى ذاهبة لأداء الصلاة .. تعالى معى!

ردت عليها باستخفاف :

كيف وأنا فى هذا الوضع المتبرج ..؟!

قالت لها : إن الله ﷻ يفرح بعودة عبده إليه فى أى وضع .

تمادت فى الإلحاح عليها حتى حركت مشاعر التوبـة فيهـا ، وأقنعتها بالذهاب معها إلى المسجد .

وبعد أن دلفن .. أخذن ركناً خلفياً .. هى تحاول أن لا تراهـا النسوة الجالسات وهى على هذا الوضع ، وعلى استحياء جلسـت .. لكن عطرها فضحها .

التفتن نحوها جميعاً .

استدركتها صديقتها .. أطبقت على يدها تطمأنها .. ما لبثن أن اعتدلن جميعاً لصعود الخطيب على المنبر .. وانتبهن .

كان موضوع الدرس عن التوبة وفرحـة الخـالق " سـبحانه وتعالى " بعودته وهدايته .

أدركت على الفور أن الباب مازال مفتوحاً أمامها .. عزمـت عزماً أكيداً أن لا تضيع هذه الفرصة من بين يديها .. بعد ختـام الصلاة أجهشت بالبكاء .. اختلطت دموعها بما على وجهها مـن مساحيق وأضحى مليئاً بكل الألوان التى تنسال فى خطوط علـى خديها .. وعندما تحاول مسحها بيديها تنتشر الألوان على جميـع أجزاء وجهها .

انتبهت النسوة وذهبن جميعاً إليها والتفقن حولهـا .. أخرجـت إحداهن منديلاً .. مسحت لهـا دموعهـا ووجههـا فأصـبحت كالملائكة يمتلئ وجهها بالنور .

بعضهن تأثرن بما رأين فجلسن يبكين ويحمـدن الله ﷻ علـى هداية هذه الفتاه المحظوظة ، وعندما هموا للخروج .. طلبت الفتاة زياً آخر ترتديه .. أصرت أن لا تخرج وهى على هذا النحـو ،

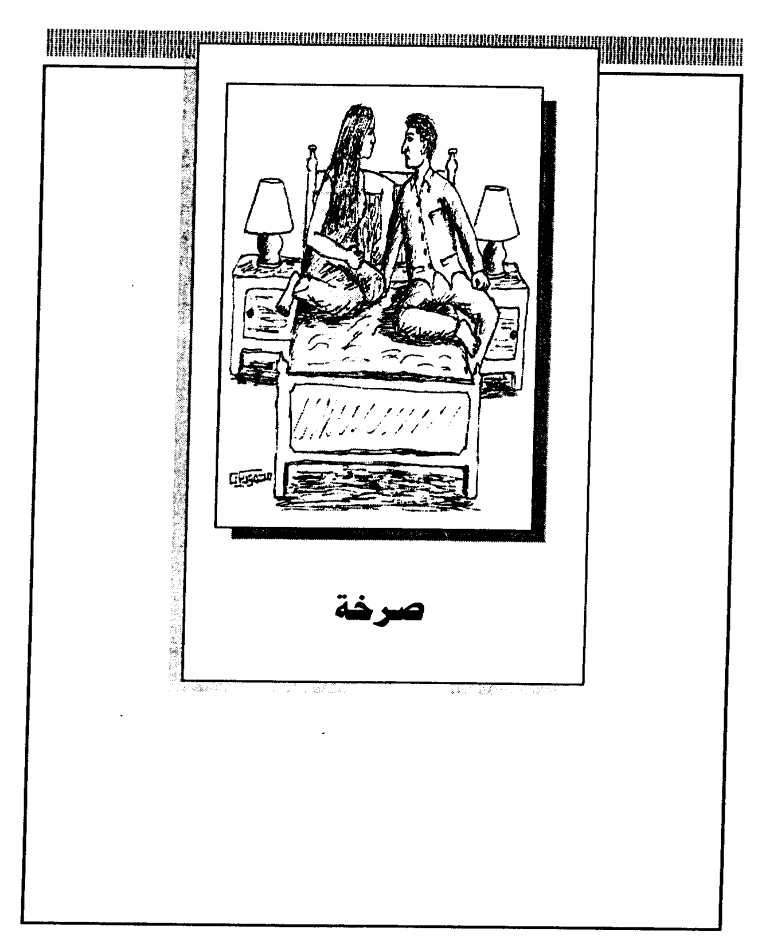
وأثناء المشاورات كانت احداهن قد نزلت إلى الشـــارع و دلفـت داخل أقرب محل لبيع الملابس وابتاعت زيا محتشما .. وضـــعته فى كيس .. أهدته لها بحب وأحتوتها فى حضنها .

قامت النسوة بمساعدتها فى ارتداء هــذه الملابــس البيضـــاء الجديدة كما لو كانت عروس ستزف .. عندئذ تفرقن جميعاً مـــن حولها وذهبن أدراجهن .

أخذتها صديقتها والفرحة تملأ كيانها .. دلفن إلى الشـــارع .. وأثناء عبورهن الشارع جاءت سيارة وصدمت الفتاة وهـــى فـــى كامل زينتها .. وفارقت الحياة .







صرخة



– ومضات من حياته البائســة .. هــوت بكيانــه .. عصفت بحياته الرخيصة .

– يسرع الخطو نحو أماكن غامضة .

– توهجت مصابيح مخه .. ثم انطفأت أمــام دمــوع القلب البارده .

– سنوات وسنوات مرت عليــه .. دون أن يفهــم ســر تلــك الصرخات المكتومة .. التى تخرج من بين صلبه وترائــب تلــك البائسة التى وهبت حياتها لقمة سائغة فى فم لا يتذوق سوى مرارة الألم .

– انطفأ مصباح الغرفه الساكنة على اسراره .. تقرفص علــى حرف السرير .. ينظر إلى السجادة الحمراء البالية .

– هربت نفسه ثم عادت .. بعد أن نالت حظهــا مــن المتعــة الزائفة .

– ترامى إلى مسامعه صرير الباب كحلم .. ثم تمتمات لم يفهم معناها .

– شعر بهمس رقيق .. فجر أحاسيس وعواطف أشبه بتلك التى كان يشعر بها مع حبه الأول .

– حاول أن يخفى عن نفسه ألام الماضى الذى يطارده .

– دارت به الدوائر داخل حياة .. صعب عليه أن يقبلها ، ولـــم يشغل باله بأن هذه الحياة يجب أن يعيشها كما هى .

– تكاثفت جهودها لكى تنسيه حبه الأول .. الذى ظن أن حياته قد توقفت بدونه .. تحاول انقاذه .. انقاذ حبها الأول متألمة .

– هل تعامله على أنه مريض أم متمرد أم .. ؟

– هل تستطيع أن تنقذه من آلامه ؟

ومن ينقذها من ... ؟

بعد أن أخذ منها ثمرة تلك الصـــرخات المكتومـــة ، ومنـــذ أن سلمت بواقعها وهى تنفذ وصايا أمها بالحرف .. لا تريد أن يذهب حلمها إلى فراغ العقل المتمرد .. بعد هذا العمـــر لا زال يلهـــث وراء أوهام .

– تفضحه حروف وكلمات متقطعة تخرج من أعماق أحلامه .. تقوم بتجميعها .. تضحى جملاً مفيده .. تختزنها فى العقل الباطن ، ولكنها لا تنساها .

– كيف تنسى إهانات متتالية تؤرقها ؟

– لا زال مغمض العينين .. ولكن ذهنه متقد .. يتابع حـــديث الصمت الملتهب بينهما .

– يشعر بحرارة جسمها تزحف نحوه .

- ماذا يفعل وثمار تلك الصرخات تنام مستكينة فـــى الغرفـــة المجاورة ؟ .. تنعم بحنان قلوب بارده تخفق فقط من أجل أن تحيا حياة البؤساء .

- صمت مطبق .. لكنه لا يخلو من أصوات غامضه تصـــدر من أماكن خفيه .. من المجهول .. من الصـــدور أو حتـــى مـــن الجحيم الذى صنعوه بأيديهم .

- يربع يديه فى صدره .. يثنى رجليـــه فتضـــحى مصـــدات للحرارة المتسلله نحوه .

- تجلس مضطجعه على جنبها .. كوعها منفرس فى الوســـادة البيضاء اللينه التى تشهد على تلك الصرخات .

تعيد ترتيب شعرها المهدول وتحدق فى وجهه الذى تتفصد منه حبات العرق .

يشك أنها تعلم سبب شروده الدائم ، ويعلم أنها تنفذ وصايا أمها ، ودائماً ما تغفر له .

ولكن .. هل يستطيع أن يغفر لها ؟

لحظات ولكنها ثقيلة .. مرت عليهما كدهر .. تمدد بجسمه على حرف السرير .. ألقى تلك المصدات الوهمية التى يتصنعها عندما يتمكن منه شيطانه .. رغبة منه بأن تبدأ هى بإزالة كل الحواجز .



الفهرس

الصفحة

التصميم والإخراج الفني

إهداء

د/ محمد عبد العال

الغلاف والرسوم الداخلية

بريشة الفنان / محمود بكرى